مهرجان القراءة للجميع
مكتبة الأسرة

جان بول سارتر

ترجمة: د. سامي محمود علي / د. عبد السلام القفاش

نظرية في الانفعالات

أمهات الكتب



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

نظرية فى الانفعالات

نظرية فى الانفعالات

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : **حروب الفضاء**

التقنية : برامج كمبيوتر على فيلم سينمائى

المقاس: ٢٥×٢٥ سم

صور الكمبيوتر شخصية بشرية لحظة انفعالها ضمن حروب الفضاء، من التأكيد على التشظى واستبدال ضربات الفرشاة بالمكعبات والمستطيلات من خلال مجموعة لونية يغلب عليها اللون البنى بدرجاته المختلفة، وقد ترك منطقة بكاملها دون درجات لونية سوى اللون الأسود، وكأنه يشير بذلك إلى أن كل العناصر الشكلية منبثقة عن هذا اللون القاتم، وكل العناصر المنطلقة تنتهى كالوميض وهو يخبو ويندثر ليترك آثار الحرب على كل ما حوله من فضاءات شاسعة.

محمود الهندى

نظرية فى الانفعالات

چان پول سارتر

ترجمة: د. سامى محمود على

د. عبدالسلام القفاش

تحرير: د. محمد عنانى

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١
مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(امهات الـكتب)

نظرية فى الانفعالات

جان پول سارتر

ترجمة: د. سامى محمود على

د. عبدالسلام القفـاش

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقــافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشــباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

الفهــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

مقدمة الترجمة العربية

بقلم

الدكتور : سامي محمود علي

«جان بول سارتر»[1] رائد من رواد الفكر المعاصر وواحد من كبار فلاسفة الغرب وأدبائه . وقد اشتهر «سارتر» أول ما اشتهر بأعمال أدبية ملفتة، منها القصص أمثال «الغثيان» La nausée (١٩٣٨) و «الجدار» Le mur (١٩٣٩) و «طرق الحرية» Les chemins de la liberté (١٩٤٥ - ١٩٤٩) ، ومنها المسرحيات وأهمها «جلسة سرية» Huis clos (١٩٤٥) و «المومس الحفية» La putain respectueuse (١٩٤٦). و «الأيدى القذرة» Les mains sales (١٩٤٨) و «إبليس والرب» Le diable et le Bon Dieu (١٩٥١). وكل هذه الأعمال تصوير عميق لجوانب من كبرى المشكلات التى تعرض للإنسان المعاصر فى تساؤله عن

(١) ارجع إلى ثبت المصطلحات والأعلام الذى رأينا إلحاقه بهذه الترجمة ، تعريفا بالمؤلفين الذين ورد ذكرهم فيها وتوضيحًا للمصطلحات الفنية المميزة للتفكير الفنومنولوجى عامة .

المصير ومعنى الحياة . وهو تصوير يستمد أصوله من فلسفة جديدة فى الوجود الإنسانى ، وضع « سارتر » أسسها النظرية فى كتابه الرئيسى «الكون والعدم» L'être et le néant (١٩٤٣) . ومؤدى هذه الفلسفة أن وجود الإنسان متقدم على ماهيته ، بمعنى أن الإنسان ليس له طبيعة معينة سابقة على أفعاله ، وإنما يحدد الإنسان واقعه الإنسانى بما يأتيه من أفعال فى مختلف المواقف ، أفعال أساسها اختيار متصل صادر عن حرية مطلقة تجعل الإنسان مسئولا عن مصيره مسئولية مطلقة كذلك . وهذه الحرية لا يمكن تقييدها أو إلغاؤها لأنها حرية الشعور المطلق والشعور- فى جوهره- تخطٍّ مستمر لأحواله وتعدٍ دائم لكل صورة يصوغ فيها الإنسان حياته ويحصر فيها وجوده الفعلى .

وقد أدت هذه الفلسفة إلى مذهب جديد فى الأدب اتبعه «سارتر» فى كافة كتاباته ، هو أدب المواقف . والمبدأ الأول فى هذا اللون من التعبير الفنى ، يشرحه «سارتر» فى معرض حديثه عن التأليف المسرحى إذ يقول: «كان المسرح فى الماضى هو مسرح الشخصيات : فقد كان المؤلف يعرض على خشبة المسرح أشخاصًا متفاوتى التعقيد ولكنهم مكتملو التكوين وكان دور الموقف قاصراً على مواجهة هؤلاء الأشخاص بعضهم ببعض وإبراز كيف يؤثر كل منهم فى الآخر . . . (أما فى مسرح المواقف) فليس ثمة شخصيات والأبطال هم حريات مقيدة ، كما هو شأننا جميعًا . وما هى سبل الفكاك من هذه القيود ؟ إن كل شخص لا يعدو

أن يكون هو الفعل الذى يختار به أحد هذه السبل وقيمة الشخص لا تجاوز قيمة السبيل المختار . . . فكل موقف - بمعنى ما - شرك منصوب والجدران قائمة فى كل مكان . وقد أسأت التعبير ، فليس ثمة سبيل يقع عليها الاختيار ، فالسبيل يجب أن يُخلق ، وكل فرد يخلق ذاته إذ يخلق السبيل الخاص به والإنسان يجب أن يُخلق كل يوم »[1] .

غير أن ثمة جانبا من أعمال «سارتر» لم يلق - رغم أهميته - ما لقيته الجوانب الأدبية والفلسفية من عناية وظل مجهولا من جمهرة القراء، ألا وهو الجانب النفسى . فقد اشتغل «سارتر» منذ وقت مبكر بالدراسات النفسية ووجه اهتمامه إلى مشكلتين على وجه التحديد، الخيال والانفعال. وقد أفرد للمشكلة الأولى كتابين هما «الخيال» L'imagination (١٩٣٦) و «المتخيَّل» L'imaginaire (١٩٤٠) ، وعالج المشكلة الثانية فى كتاب «نظرية فى الانفعالات» Esquisse d'une théorie des émotiors (١٩٣٩) الذى نقدمه اليوم للقارئ العربى ونحن سعداء بهذا التقديم .

فالكتاب لا يقتصر على عرض رأى طريف فى طبيعة الانفعال يضاف إلى ما سبقه من آراء الفلاسفة وعلماء النفس فيه . وإنما يعتبر الكتاب - على صغره - مدخلا رائعًا للتفكير الفنومنولوجى وتطبيقًا نموذجيًا لهذا

---

(١) Qu'est-ce que la littérature ? *Situations*, II, Gallimard, Paris 1948.

المنهج الذى أحدث انقلابا فى مجال الفلسفة المعاصرة وعلوم الإنسان ولا سيما علم النفس . والكتاب لا يكتفى بإثارة مسألة طبيعة الانفعال فى نطاق مباحث علم النفس المنوّعة ، بل إنه ليتساءل - بصدد هذه النقطة - عن طبيعة علم النفس ذاته بوصفه مبحثا مميزا عن مباحث علوم الطبيعة . و «سارتر» يميز هنا بين موقفين منهجيين أساسيين فى دراسة الظواهر النفسية ، الموقف التجريبى ويتمثل فى تيارات علم النفس المختلفة ولا سيما التقليدى منها ، والموقف الفنومنولوجى الذى يمثله «هوسرل» - خالق الفنومنولوجية أو علم الظواهر - والذى يستهدف إقامة علم النفس على أسس جديدة كل الجدة وفتح آفاق أخرى للبحث العلمى . و«سارتر» لا يكتفى بعرض هذا الموقف الأخير عرضًا نظريًا مجردًا ، وإنما يدلل على خصوبة المنهج الفنومنولوجى بتطبيقه على ظاهرة من أخطر الظواهر النفسية ألا وهى الانفعال . ثم يعود فيطبقه ثانية فى دراسته للخيال والموضوع المتخيَّل ، ويستعين به أخيرًا فى وضع نظريته العامة فى الوجود.

وينص المنهج الفنومنولوجى ، إذا ما طُبق على علم النفس ، على ضرورة استخلاص معنى الأحداث النفسية أولا وقبل كل شيء . فكم من دراسة تجريبية أساسها ظواهر غامضة مختلطة المعالم ، وكم من مذهب فلسفى أو علمى شوه إدراكنا للظواهر النفسية فى نقائها الأول ! إن ما نفتقر إليه فى هذا المجال هو توضيح ماهيات الظواهر توضيحًا شاملاً

والنظر إليها نظرة جديدة صافية من شوائب المعتقدات الضمنية ورواسب الأفكار السابقة التحكمية . ومن ناحية أخرى ، تأخذ الفنومنولوجية على علم النفس طريقته في دراسة الأحداث النفسية ذاتها : فهو يدرسها من خارج وكأنها أحداث طبيعية يتعين تفسيرها ، فيربط بينها ربطا عليا ، يغفل فيه عن إبراز معنى هذه الأحداث بالنسبة لواقع الإنسان . لذلك كله يوصى «هوسرل» بضرورة الرجوع إلى «الأشياء ذاتها» ، بعد تعليق كل حكم سابق يتصل بطبيعتها ووجودها ، والعمل على وصفها كما تتبدّى مباشرة للشعور الخالص باعتبارها ظواهر خالصة . ويتوخى الوصف تحديد ماهية الظواهر من حيث هى موضوعات مباشرة للشعور المتعالى . والمبدأ الذى يقوم عليه هذا الوصف هو مبدأ «قصدية الشعور» ومؤداه أن «كل شعور هو شعور بشيء ما»[1] . ومن ثمة نجد «سارتر» فى دراسته للانفعال يتأدى بالتدريج بعد توضيح نقائص النظريات السائدة فيه – إلى اكتشاف أن الانفعال ظاهرة لها معنى وأن هذا المعنى يمكن توضيحه بوصف البناء الجوهرى للشعور المنفعل ، بحيث يبدو الانفعال ضربا من

---

(١) راجع فى هذا الموضوع E. Husserl: *Idées directrices pour une phénoménologie*, p. 34. Gallimard, Paris1950 .

Ibid.: *Méditations Cartésiennes*, p 14. Vrin, Paris 1947 .

Ibid.: *La crise des science seuropéennes et la phénomenologie transcendentale* p. *17. Révue philosophique*. 1947 .

ضروب الوجود الإنسانى فى العالم وتكشفا لهذا العالم فى إحدى صوره الجوهرية .

ولست أقصد من هذا التقديم تلخيص نظرية «سارتر» فى الانفعال ، مجنبا القارئ مشقة – أو متعة – متابعة «سارتر» فى برهنته على دلالة الانفعال بالنسبة للواقع الإنسانى . وذلك لأن أحد مزايا الكتاب الكبرى – على ما يبدو لى – هى حثه القارئ على التفكير لنفسه ومراجعة أفكاره التى اعتنقها بغير فحص نقدى كاف فضلاً عن إثارته المشكلات العامة فى عمق وخصوبة . وإنما أود أن أشير عابرا إلى المحور الذى تدور حوله النظرية حتى يتسنى الربط بينها وبين أعمال «سارتر» الأخرى . إن الفكرة الأساسية فى الانفعال هو أنه ليس عَرَضا جسميا ولا هو حالة شعورية داخلية ولكنه علاقة موضوعية بالعالم وإدراك للجانب السحرى من الأشياء فيه . فحين أعجز عن تحقيق فعل تحقيقا استخدم فيه الروابط العلية بين الأشياء ، وتنسد أمامى سبل هذا التحقيق ، أنفعل ويكون الانفعال نحوا من السلوك يستهدف القضاء على الموقف الصعب وتغيير العالم تغييرا شاملا. ولعل الغضب أوضح المواقف التى تتجلى فيها غائية الانفعال : فعندما أفشل فى حل مسألة ما ، فإنى أغضب وأمزق الورقة المدوّن عليها منطوق المسألة ، وكأنى بفعلى هذا ألغى الصعوبة التى تعترض طريقى دون أن أجد لها حلا . والسلوك بهذه المثابة سلوك خيالى قائم على إنكار الواقع ومحاولة التأثير فى العالم تأثيراً سحريًا مباشراً . وعند هذا الحد

تقف نظرية الانفعــال عند «سارتر» ، فهى تنص على أن الانفــعال سلوك متخيَّل ، ولكنها لا توضح ماهية الخيال ولا خصائص الموضوع الخيالى . وسوف يعــود «سارتر» لهــذا الجانب من المشكلة فى كــتاب «المتــخيَّل» ، فيفصل فصلا قــاطعا بين الخيال والإدراك الحــسى ، ويدلل على أن الصورة الخيالة ليــست «شيئا داخل الشــعور» ولكنها «شعــور بشىء» غائب يوهم بالحضور ، ثم يصف بناء الشعور المتخيِّل وأنواع الموضوعات الخيالية التى يقع عليها . ويخلص من ذلك بأن الخيال أحد أبنية الشعور الجوهرية وأنه شرط أساسى لوجوده .

وثمة نقطة أخــرى مسها «ســارتر» مسا خفــيفا فى سياق كــلامه عن الانفعــال ، دون أن يبررها بما فــيه الكفــاية ، ألا وهى مســألة الاعتــقاد الشعورى . فقد بيّن «سارتر» أن الانفعال ليــس سلوكا متعمدا نقصد من ورائه تغيير العالم ، ولا هو مجرد خدعة نخدع بها – عن عمد – أنفسنا، ولكنه أيضًا تقبل سلبى لهذه الخديعة وضرب من الاعتقاد التلقائى بفاعلية مسلكنا السحرى . والاعتقــاد بهذا المعنى مشكلة من أصعب المشاكل التى تواجهها كل فلسفة تصدر عن «الكوجيتو» الديكارتى ، كما هو شأن فلسفة «سارتــر» . ويزيد من الأمور تعــقيــدًا أن «سارتر» يرفض فكرة التــحليل النفسى فى اللاشعــور رفضا باتا ، ويرفع كل سلبية عن ماهــية الشعور ، ويحد «وجود الشعور» بأنه «شعور بالوجود»(١) . فكيف نفهم إذن سلبية

(١) J. P. Sartre: *L'être et le néant*, p. 20. Gallimard, Paris 1943

الشعور فى الانفعال ؟ وكيف يمكن للشعور أن يغرر بذلك وهو - بحسب تعبير «سارتر» ، «الصفاء المطلق» ؟ تلك هى المشكلة التى يعرض لها «سارتر» بالتفصيل فى مستهل كتابه «الكون والعدم» ، تحت عنوان «التمويه على الذات» La mauvaise foi . وأيا كان الأمر ، فلا ريب فى أن هذين النقصين اللذين أشير إليهما ، يرجعان إلى أن «سارتر» لم يقصد - فى هذا الكتاب - إلى عرض نظرية كاملة فى الانفعال وإنما توخى رسم الخطوط الأساسية لمثل هذه النظرية ، داخل إطار علم النفس الفنومنولوجى .

*

نستطيع الآن أن نفهم مغزى الإشارة السالفة إلى أن الفنومنولوجية أحدثت انقلابًا فى علم النفس . فقد غيرت الفنومنولوجية بالفعل اتجاه الدراسات النفسية ونقلتها من مستوى الوقائع الجامدة إلى مستوى الظواهر ذات المعنى . وتنص فكرة «هوسرل» الأولى على ضرورة قيام علم نفس فنومنولوجى ، مستقل عن علم النفس التجريبى ، موضوعه ماهيات الأحداث النفسية وغايته توضيح معنى هذه الأحداث واستخلاص دلالتها بالنسبة للشعور الخالص . بل إن «هوسرل» يمضى إلى حد القول بتبعية علم النفس التجريبى وخضوعه بالضرورة للفنومنولوجية . ذلك - على

(١) راجع M. Merleau - Ponty: *Les sciences de l'homme et la phénoménalogie.* Centre de decumentation universitaire, Paris.

الأقل - هو موقف الفيلسوف فى أواسط سيرته الفلسفية . بيد أن «هوسرل» - فى كتاباته الأخيرة - ومعظمها لم ينشر بعد - خفف من حدة هذه الثنائية ولطف من حدة هذا التعارض وأدخل مفهومات تقرب الشقة بين المبحثين . وهذا التطور متضمن على نحو ما فى موقف «هوسرل» منذ البداية لأنه كما رأينا لا يضع الماهية فى عالم مفارق بل يجعل الحدس التجريبى وسيلة لعيان الماهية فيربط أوثق الربط بين الواقعة والماهية . أليس معنى هذا أن علم النفس التجريبى غير مقضى عليه بالبقاء فى عالم الوقائع الصماء ، وأنه ليس ثمة ما يحول بينه وبين الماهيات متى عرف كيف يتأدى إليها ؟ أليس من الممكن قيام علم النفس على فكرة حدس الماهية دون أن يفقد بذلك استقلاله إزاء الفنومنولوجية ؟ هذا هو ما حدث بالفعل فى تاريخ علم النفس المعاصر وأفضى إلى ظهور «نظرية الجشطلت» Gestalt theorie على يد «فيرتايمار» ، وهى نظرية تتمثل فيها فكرة الفنومنولوجية عن المعنى أدق تمثيل . فلقد استلهم «فيرتايمار» المنهج الفنومنولوجى[1] وطبقه لأول مَرة على دراسة الحركة الظاهرية من حيث هى موضوع للخبرة الشعورية المباشرة ، واكتشف بصدد هذه الدراسة أن الظواهر الحسية تنتظم من تلقاء ذاتها فى كلٍ له معنى . ويشير «كوفكا» ، أحد أئمة هذه المدرسة ، إلى أن نظرية

(١) E. Boring: *A history of experimental psychology*, pp. 371, 408 . Appleton - Gentu-ry - Crofts, N.Y., 1950 .

الجشطلت تفترض مبدأ المعنى ، فهى ترتأى أن «الرابطة العلية ليست مجرد تتابع واقعى نتذكره تذكر العلاقة بين الاسم ورقم المسرة ولكنها رابطة ذات معنى»[1] . والمثل يقال عن نظرية المجال Field theory عند «كورت لفين»، التى تعتبر امتداداً لنظرية الجشطلت. وإذا ما انتقلنا إلى ميدان الطب النفسى ، وجدنا أن الفنومنولوجية ، ولا سيما عند «هيدجر»، مسئولة عن خلق نظرية جديدة فى فهم الظواهر المرضية - العقلى منها على وجه التخصيص - باعتبارها خبرة شعورية أصيلة وتعديلا جوهريا يطرأ على وجود الإنسان فى العالم . والغاية من هذا الفهم وصف بناء الشعور والعالم فى أحوال المرض بدلا من الاتجاه إلى التفسير الآلى لهذه الأحوال . وأهم ممثلى هذا التيار المنهجى المسمى بالتحليل الوجودى Daseinanalyse ، «بنسفا نجار»[2] و «فيرش»[3] فى ألمانيا و«منكوفسكى»[4] فى فرنسا . كذلك أثرت الفنومنولوجية فى

---

(١) K. Koffka: Principles of Gestalt psychology, P. 20. Routledge & Kegan Paul, London 1950.

(٢) انظر مثلا L. Binswanger: *Le Cas de Suzanne Urban. Etlide sur la schizophrenie.* Desclée de Brouwer 1957 .

(٣) انظر مثلا J. Wyrsch: *La personne du schizophrène.* Presses Universitaires de Franc, Paris 1956 .

(٤) انظر مثلا E. Minkowski: *Le temps vécu.* Evolution psychiat., Paris 1933.

التحليل النفسى وإن كان الموقف فى هذا المجال أكثر تعقيداً منه فى مجالات العلوم الإنسانية الأخرى . وذلك لأن التحليل النفسى - فى قوله بأن الأفعال الإنسانية كلها ذات معنى - قد أسهم دون علم منه فى تنمية الفنومنولوجية وتوجيه النظر إلى معنى الأحداث النفسية - السوى منها وغير السوى - بالنسبة للفرد ، بدلاً من الربط بينها وبين شروطها الآلية[1] . فثمة جانب فى التحليل النفسى يجعله - من حيث المبدأ - قريب الصلة بالفنومنولوجية ويفسر انطباع صوره المعاصرة بطابع فنومنولوجى أصيل . ويتمثل هذا الطابع فى ثلاثة مواقف على وجه التحديد : فهناك اتجاه عام إلى تناول مسائل التحليل النفسى من زاوية «سيكولوجية الأنا» Egopsychology أى من حيث علاقة الأنا بالموضوعات فى مختلف الأمراض النفسية والعقلية[2] . وهناك تيار يستلهم الفنومنولوجية ، فى نطاق التحليل النفسى ذاته ، باعتبارها منهجا وصفيا يساعد على إبراز بعض الجوانب الغامضة من الظواهر النفسية . وذلك ما فعله «لاجاش» مثلا فى وصفه «غيرة الحب» من حيث هى خبرة مباشرة بالعالم[3] . وهناك أخيراً محاولة لصياغة التحليل النفسى صياغة

---

(١) M. Merlau - Ponty : *Phénoménologie de la perception,* pp. 184. 5 Grallimard, Paris, 1945.

(٢) انظر مثلا P. Federn: *Egopsychology and the psychoses*. Basic books. N.Y. 1955.

(٣) D. Lagache *La jalousie amoureuse. Psychologie descriptive et psychanalyse.* P.U.F., Paris 1947.

فنومنولوجيـة خالصة تسـتهدف وصف الموقف التحـليلى ذاته وتحديد بنائه الماهوى باعتبـاره خبرة مباشرة للشعـور فى علاقته بالآخر ، مسـتعينة فى ذلك بالفنومنولوجية الهيجلية . ومن أبرز ممثلى هذا الموقف «لاكان»[1] .

وجملة القول ، فليست الفنومنولوجية اتجـاها فلسفيا مجردا ، بل هى فكرة حية حـددت للنزعة الإنسانية المعـاصرة أهدافها وعيـنت لها وسائل تحقـيق هذه الأهداف ثم إنها - من الناحـية العلميـة - منهج مسـتقل عن الأصل الفلسفى الذى صدر عنه ، له قيمـته الموضوعية فى إثارة مشكلات العلوم الإنسـانيـة وتوجـيه حلولهـا . لذلك يمكن الـقول بأن الفلـسفـة الفنومنولوجية قامت فى هذا المقـام بدور مماثل للدور الذى لعبته فى تاريخ الفكر الإنسانى كل فلسفة خصبة[2] لم تستنفد جهـدها فى معارضة العلم

= قارن أيضًا الرسـالة الرئيسـية التى تقدمت بهـا لدكتوراه الدولة وتنـاولت فيهـا مشكلة «الإسقاط» من زاوية الفنومنولوجية .

Sami Mahmoud Ali: *La projection et les techniques projectives*, Thèse principale du Doctorat d'Etat. Exemplaires dactylographiés, Paris, 1958.

(١) انظر مثلا : I. Lacan: Fonction et Champ de la parole et du laugage en psychano-lyse. *La psychanalyse*, I, 1956.

قارن مقدمة مصطفى صفوان لترجـمة ، تفسـير الأحلام» لفرويد ، من مطبوعات دار المعارف ، مجموعة المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى .

(٢) مثال ذلك أن فلسفة «برجسون» أثرت تأثيراً حاسمًا فى صـياغة الأسس النظرية لمناهج القياس الاجـتماعى (السوسيومترى) عنـد «مورينو» ؛ كـذلك يعتـرف «لفين» بدينه الكبير لفلسفة «كاسيرر» ، التى قادت خطاه فى وضع نظرية للمجال . راجع :
=

باسم العقيـدة ، أيا كانت هذه العقيـدة ، ولم تستغرق طاقتـها فى تأليه العلم والخضوع له خضوع العبد للسيد ، بل نفذت - فى عمق وبصيرة - إلى مـصدر العلم ومـصـدر الوجود الإنسـانى جميـعًا ، فكانت حافـزا للمشتغلين بالعلم على «اكتشاف الـلامتناهى بتعمق المتناهى» ، كما يقول «جوته» .

*

تلك هى الفنومنولوجية وتلـك هى دلالتها بالنسبة للفلسفـة المعاصرة وعلم النفس المعاصر . فـعسى أن يسهم كتـاب «سارتر» فى تعريف أبناء الوطن العربى بهذه الحركة الفكرية الهامة . وعـسى أن يجد فيه الفلاسفة وعلماء الـنفس فرصة للإفـادة من المنهج الفنومنولوجى فى مـعالجـة شتى المسائل التى تعرض لهم !

الإسكندرية فى ٨ أبريل ١٩٦٠

الدكتور/ سامى محمود على
مدرس علم النفس بكلية آداب الإسكندرية
دكتوراه الدولة فى علم النفس من السربون
عضو الجمعية الباريسية للتحليل النفسى

Jol. Morano: *Who shall survive ?* Beacon House, N. Y., 1953.

K. Lewin: "Gassirer's philosophy of science and the social sciences". in P. Schipp (edit): *The philosophy of Ernst Cassirer.* The Library of living philosophers. Evanston, Illinois, 1949 .

نظرية فى الانفعالات

مقدمة

علم النفس والفنومنولوجية وعلم النفس الفنومنولوجي

يدعى علم النفس أنه مبحث وضعى ، بمعنى أنه يريد أن يستمد مواده من التجربة وحدها . غير أن عهد الارتباطين قد انقضى ، ولم يعد علماء النفس المعاصرون يحرمون على أنفسهم السؤال والتأويل . ولكنهم يريدون أن يقفوا من موضوعهم موقف عالم الطبيعة من موضوعه . غير أنه يجب تحديد مفهوم التجربة هذا عند الحديث عن علم النفس المعاصر إذ قد يوجد حشد من التجارب المتباينة ، وربما تعين مثلا الجزم فيما إذا كان ثمة تجربة بالماهيات أو ثمة تجربة دينية . إن عالم النفس لا يريد أن يستخدم إلا نمطين معينين من التجربة : التجربة التى يمدنا بها الإدراك الحسى الزمانى والمكانى للأجسام المنتظمة ، وتلك المعرفة الحدسية بذواتنا التى تسمى بالتجربة الانعكاسية . وإذا قام الجدل حول المنهج بين علماء النفس فهو لا يكاد يعدو هذه المشكلة : هل هذان النمطان من أنماط المعرفة متكاملان ؟ هل يجب إخضاع أحداهما للآخر ، أم يجب استبعاد أحدهما كلية ؟ ولكنهم متفقون على مبدأ أساسى هو : يجب على بحثهم أن يبدأ بالوقائع أولاً وقبل كل شيء . فإذا تساءلنا عما هى الواقعة ، رأيناها تحد بأنها ما نقع عليه بالضرورة إبان بحث ما ، وأنها دائمًا إثراء غير متوقع ، وجدة بالنسبة إلى الوقائع السالفة . فلا جدوى إذن من الركون إلى الوقائع كيما تنتظم من تلقاء ذاتها فى كلٍ تركيبى يكشف عن

معناه من تلقاء ذاته . وبعبارة أخرى إذا أطلقنا اسم علم الإنسان «الانثروبولوجيا» على مبحث يستهدف حد ماهية الإنسان وأحوال الوجود الإنسانى ، فإن علم النفس بل علم النفس الإنسانى لا يكون ولن يكون علم إنسان البتة . فهو لا يقصد إلى تعريف موضوع بحثه وتحديده بصفة أولية . ومفهوم الإنسان الذى يسلم به مفهوم تجريبى خالص : ففى العالم عدد من المخلوقات تتسم فى التجربة بسمات متماثلة . ثم إن هناك علومًا أخرى كعلم الاجتماع وعلم وظائف الأعضاء تعلمنا أن ثمة روابط موضوعية بين هذه المخلوقات . وفى هذا ما يكفى لكى يتقبل عالم النفس بحرص وعلى سبيل الفرض العملى ، أن يقتصر فى أبحاثه مؤقتًا على هذه الطائفة من المخلوقات . والواقع أن الوسائل المتاحة للتقصى عنها يسيرة المنال ، فهم يعيشون فى مجتمع ، ويتكلمون إحدى اللغات ، ويخلفون الشواهد والآثار . ولكن عالم النفس لا يورط نفسه ، فهو يجهل إن كان مفهوم الإنسان ليس تعسفيًا . هذا المفهوم قد يكون مسرفًا فى الشمول : فما يدرينا إن كان من الممكن إدراج البدائى الاسترالى فى الطبقة السيكولوجية للعامل الأمريكى عام ١٩٣٩ . وقد يكون هذا المفهوم مسرفًا فى التعيين : فما يدرينا إن ليس ثمة هوة تفصل بين القردة العليا والكائن الإنسانى . وأيا كان الأمر فإن عالم النفس يأبى على نفسه أن يعتبر أن من يحيطه من البشر أشباهًا به . إن فكرة التشابه هذه تبدو له تافهة خطيرة ، رغم أنها قد تكون أساسًا لعلم الإنسان . أجل إنه

ليعترف فى نطاق التحفظات السالفة الذكر ، بأنه إنسان ، أى بأنه جزء من هذه الفئة التى تم عزلها مؤقتًا . ولكنه يرى أن صفة الإنسانية هذه مضافة إليه إضافة لاحقة ، وأنه لا يمكن ، من حيث أنه عضو فى هذه الطائفة ، أن يصبح موضوع درس خاص ، اللهم إلا لسهولة التجارب فمعرفته بأنه إنسان مستمدة إذن من الآخرين ولن تتجلى له طبيعته الإنسانية بصورة خاصة بزعم أنه هو ذاته موضوع الدرس . فالمشاهدة الداخلية ههنا تقتصر على تقديم الوقائع ، شأنها فى هذا شأن التجريب «الموضوعى» . فإذا قدر لمفهوم دقيق عن الإنسان أن يظهر يومًا ما ، وهو أمر مشكوك فيه ، فلن يمكن تصور هذا المفهوم إلا باعتباره خاتمة علم تام، أى أنه يرجأ إلى ما لا نهاية . وهو إذ ذاك لن يكون إلا فرضًا موحِّدًا وضع لربط المجموعة اللامتناهية من الوقائع المكتشفة وتنسيقها . وهذا يعنى أن فكرة الإنسان إذا اكتسبت معنى إيجابيًا يومًا ما ، لن تكون إلا افتراضًا يستهدف الربط بين متفرق المواد ، ويستمد وجاهته من مثل هذا الربط . وقد حد «بيرس» الفرض بأنه جماع النتائج التجريبية التى يسمح بالتنبؤ بها . وهكذا لا يمكن أن تكون فكرة الإنسان سوى جماع الوقائع المسجلة التى تسمح هذه الفكرة بتوحيدها . وأن استخدم بعض علماء النفس رغم ذلك تصورًا معينًا عن الإنسان قبل أن يصبح هذا التركيب النهائى ممكنًا ، فهم يصدرون فى ذلك عن دافع شخصى خالص باعتبار هذا التصور شعاعًا هاديًا أو «فكرة» بالمعنى الكنتى بحيث يتعين عليهم أولاً الا يغيب عنهم البتة أننا حيال مفهوم منظِّم للتجربة .

وينجم عن كل هذه التحفظات أن علم النفس ، من حيث ادعائه أنه علم ، لا يستطيع أن يمدنـا إلا بمجموعة من الوقـائع الخليط التى لا تربط بين معظمـها رابطة مـا . فما أبعـد الشقة مـثلاً بين دراسة وهم الحـركة الظاهرية ودراسة عـقدة النقص ! وهذه الفوضى لا ترجع إلى الصـدفة بل إلى مبادئ علم النفس ذاتها . فترقب الواقعة إنما يعنى ترقب شىء منعزل وتفضيل العرض على الماهيـة ، والحادث على الضرورى ، والفوضى على النظام ، صدوراً على نزعـة وضعيـة ، ومعناه رفض الجوهر رفضًا مـبدئيًا وإرجائه إلى المستقبل : « سنترك ذلك إلى ما بعد عندما نكون قد جمعنا ما يكفى من الوقائع » . ولقد فات علماء النفس أنه من المستحيل الوصول إلى الماهية عن طريق تكديس الأعراض استحالة البلوغ إلى الوحدة بإضافة أرقام لا نهائيـة إلى يمين العدد ٠,٩٩ . فإذا كان هدفهم لا يتـعدى جمع المعلومـات التفصـيلية ، فليس ثمـة اعتراض ، وإن كـنا لا نرى جدوى أعمال التكديس هذه . أما إذا كـان يحدوهم ، على تواضعهم ، أمل فى الوصول ذات يوم إلى تركيب أنثروبولوجى على أساس بحوثهم المنعزلة، وهو أمل جدير بالثناء فـى حد ذاته ، فهم فى تناقض تام مع أنفـسهم . وقد يقال أن هذا هو بالذات منهج العلوم الطبيعـية ومطمحها . ويرد على ذلك بأن علوم الطبيعة لا تهدف إلى معرفة العالم ، بل إلى معرفة شروط إمكان بعض الظواهر العامة . فقد تبـدد منذ أمد طويل مفهوم العالم هذا نتيجـة لنقد علماء المناهج ، ذلك لأن من المحال الجـمع بين تطبيق مناهج العلوم الوضعـية ، والأمل فى أنها سـوف تؤدى يومًا ما إلى الكشف عن

معنى هذا الكل التركيبي الذى يسمى عالمًا . غير أن الإنسان موجود من نفس النمط الذى ينتمى إليه العالم ، بل إنه من المـمكن ، على ما يعتقد «هيدجر» ، أن يكون مفهوم العالم و«الواقع الإنسانى» (Dasein) مرتبطين برباط لا تنفصم عراه . لذلـك بالذات يجب على علم النفس التسليم بأن الواقع الإنسانى بعيد عن متناوله إذا كان ثمة واقع إنسانى .

والآن ، إذا طبقت مبادئ عالم النفس ومـناهجه على حالة خاصة ، ولتكن دراسة الانفعالات ، فما هى النتائج التى تفضى إليها ؟ أولا سوف تنضاف معرفـتنا بالانفعال إضافة خـارجية إلى سائر مـعارفنا عن الكائن النفـسى . فيظهـر الانفعـال وكـأنه شيء جديد كل الجـدة ، لا يرد إلى ظواهر الانتباه والـذاكرة والإدراك الحسى وما إليهـا . والحق أنك تستطيع أن تمعن النظر فى هذه الظواهر ، وفى المفهوم التـجريبى الذى نكونه عنها وفقًا لتعاليم علماء النفس ، وأن تقلبها على جـوانبها المرة تلو المرة كيفما شئت ، فلست بمكتشف أية رابطة جـوهرية تربطها بالانفعال . ومع ذلك فإن عـالم النفس يعتـرف بأن للإنسان انفـعالات لأن ذلك هو مـا تلقنه التجربة إياه. وهكذا يكون الانفعال عرضًا أولاً وبالذات تفرد له كتب علم النفس فصلاً يأتى فـى أعقاب أخرى، شأنه فى ذلك شـأن الكالسيوم فى كتب الكيمـياء ، يأتى بعد الايدروجين أو الكبريت . أمـا دراسة شروط إمكان الانفعال، أى التساؤل عما إذا كان بنيان الواقع الإنسانى ذاته يجعل الانفعالات ممكنة ، وعلى أى نحو يجعلها ممكنة ، فـذلك ما يبدو لعالم

النفس أمراً لا يجدى ولا يعقل : ففيم البحث فى إمكان الانفعال ما دام الانفعال موجوداً بالفعل ؟ كذلك يلجأ عالم النفس إلى التجربة لتحديد معالم الظواهر الانفعالية وتعريفها .وإذ ذاك فقد يتنبه إلى أن لديه بالفعل فكرة عن الانفعال ما دام يضع ، بعد معاينة الوقائع ، حداً فاصلاً بين الانفعالى منها وغير الانفعالى . إذ كيف يمكن للتجربة أن تمده بمبدأ للتمييز إن لم يكن حاصلا عليه من قبل ؟ بيد أن عالم النفس يفضل الاكتفاء بالاعتقاد بأن الوقائع قد تجمعت أمامه من تلقاء نفسها ، وأن المسألة تنحصر الآن فى دراسة هذه الانفعالات التى تم عزلها . لذلك تُخلق المواقف الانفعالية أو يستعان بمن يتسمون بسرعة الانفعال ممن يقدمهم لنا علم الأمراض . وإذ ذاك نجهد فى تحديد العوامل المسئولة عن هذه الحالة المعقدة . فنعزل الاستجابات الجسمية ، وهو ما يمكننا إثباته على وجه الدقة ، ثم أنماط السلوك والحالة الوجدانية بالمعنى الصحيح . ومن ثم نستطيع أن نصوغ قوانيننا وأن نتقدم بتفسيراتنا ، أى أننا نحاول الربط بين هذه الأنماط الثلاثة من العوامل فى نسق لا يمكن عكسه . فإذا كنتُ من أتباع النظرية العقلية مثلا ، وضعت علاقة ثابتة مطردة بين سابقة هى الحالة الوجدانية ، ولاحقة هى الاضطرابات الفسيولوجية . أما إذا كنتُ أعتقد مع أنصار النظرية السطحية بأن «الأم حزينة لأنها تبكى» لاكتفيت فى الواقع بعكس ترتيب العوامل . والأمر المؤكد فى كافة الحالات هو أننى لن أبحث عن تفسير للانفعال أو قوانينه بالرجوع إلى

الأبنيـة العامـة والجوهرية للـواقع الإنساني ، بل بالرجـوع إلى عمليات الانفعال نفسه ، بحيث لن يكون الانفعال ، مهما بلغ وصفه وتفسيره من دقة ، إلا واقعة ضمن الوقائع ، واقعة مغلقة على ذاتها لا تسمح بتفهم ما عداها ولا بإدراك واقع الإنسان الجوهري من خلالها .

وملافـاة لهذه النقـائص في علم النفس وفي المذهب النفسـي قام منذ ثلاثين عامًا مبحث جديد هو الفنومنولوجية . وقد انتبه مؤسسه «هوسرل» أول ما انتبه إلى هذه الحقيـقة : وهي أن هناك هوة لا تعبر بين الماهيات والوقـائع ، وأن من يبدأ بـحثـه بالوقائع لـن يدرك الماهيات أبدًا ، فـإن بحثت في الوقـائع النفسـية المقوِّمة لحـالة الفرد الذي يحـسب ويعد ، لما توصلت قط إلى تركـيب الماهيـات الحسـابية الخـاصـة بالوحدة والعـدد والعمليـات . وليس معنى هذا ، التـخلي عن فكرة التجـربة (فإن مـبدأ الفنومنولوجية هو المضـي إلى الأشياء «ذاتها» وأساس منهجـها هو حدس الماهية) ، وإنما ينـبغي على الأقل توسيع نطاقـها وإفـساح المجال لتـجربة الماهيات والقيم . بل يتعين الاعتـراف بأن الماهيات وحدها هي التي تتيح تصنيف الوقائع وفـحصها . فمـا لم نرجع ضمنًا إلى ماهيـة الانفعال ، لاستحال علينا أن نميز الطائفة الخاصة بوقائع الانفعال ضمن الحشد الزاخر من الوقائع النفسية . وما دمنا قد رجـعنا ضمنًا إلى ماهية الانفعال ، فإن الفنومنولوجية توصي بالرجوع إليها صراحة وحسم الأمر بتحديد مضمون هذه الماهيـات بوساطة المفـاهيم . ثم إن فكرة الإنسـانيـة ، بالنسبـة إلى

الفينولومنوجية ، لا يمكن أن تكون مفهومًا تجريبيًا ناتجًا عن التعميمات التاريخية ، بل إننا فى حاجة إلى الاستعانة ضمنًا بالماهية «الأولية» للكائن الإنسانى كيما نهيئ لتعميمات عالم النفس أساسًا على شىء من الرسوخ . وفضلاً عن ذلك ، لا يمكن اعتبار علم النفس نقطة للبدء إذا نظرنا إليه بوصفه علمًا يفحص فى بعض الوقائع الإنسانية ؛ ذلك لأن الوقائع النفسية التى نجدها أمامنا ليست وقائع أولى على الإطلاق، وإنما هى فى جوهرها استجابات الإنسان للعالم ، ومن ثم فهى تفترض الإنسان والعالم ولا يمكن أن تكتسب معناها الحقيقى ما لم يوضح بادئ ذى بدء هذان المفهومان . فإن أردنا أن نقيم علم النفس ، تعين علينا أن نتخطى ما هو نفسى ، أن نتخطى وضع الإنسان فى العالم ، مرتقين منه إلى مصدر الإنسان والعالم والنفسى جميعًا ألا وهو الشعور المتعالى والتكوينى الذى نتوصل إليه عن طريق «الاختزال الفنومنولوجى» أو «وضع العالم بين قوسين» . ذلك هو الشعور الذى يجب استخباره ، وأن ما يعطى قيمة لإجاباته ، لهو أنه شعورى أنا بالذات . وهكذا عرف «هوسرل» كيف يستغل هذا القرب المطلق للشعور بالنسبة إلى ذاته ، وهو ما لم يشأ عالم النفس الإفادة منه . وهو يستغله بتبصر ووثوق تام ، لأن الشعور موجود بقدر ما هو شعور بالوجود . ولكنه يمتنع هنا أيضًا ، كما فعل من قبل ، عن استخبار هذا الشعور عن الوقائع ، وإلا لواجهنا فى المستوى المتعالى ما فى علم النفس من فوضى . فهو يعمل على وصف الماهيات التى يخضع لها المجال المتعالى فى تطوره ، وعلى تحديدها مستعينًا

بالمفاهيم . ففينومنولوجية الانفعال مثلا تدرس الانفعال بعد «وضع العالم بين قوسين» ، بوصفه ظاهرة متعالية خالصة ، ولا يكون ذلك بالاتجاه إلى الانفعالات الفردية ، بل بالسعى إلى إدراك وتوضيح الماهية المتعالية للانفعال باعتباره نمطًا منظّمًا من الشعور . وعن هذا القرب المطلق بين الباحث وموضوع بحثه يصدر فنومنولوجى آخر هو «هيدجر» . إن ما يميز كل مبحث فى الإنسان عن سائر أنماط المسائل الدقيقة ، لهو هذه الواقعة الفريدة وهى أن الواقع الإنسانى هو نحن أنفسنا .

يقول «هيدجر» : « إن الموجود الذى ينبغى علينا إخضاعه للتحليل هو نحن أنفسنا . وكينونة هذا الموجود هى كينونتى أنا »[1] . وليس عرضًا أن يكون هذا الواقع الإنسانى هو أنا ذلك لأن الوجود بالنسبة إلى الواقع الإنسانى هو أن يأخذ كينونته على عاتقه ، أى أن يكون مسئولاً عنها بدلا من أن يتلقاها من خارج كما هو شأن الحجر . و «لما كان «الواقع الإنسانى» هو فى ماهيته إمكانياته الخاصة به ، فإن هذا الموجود يستطيع أن «يختار» ذاته فى كينونته ، أن يكسب ذاته، وأن يفقدها »[2] . وهذه المسئولية عن الذات ، المميزة للواقع الإنسانى، تنطوى على فهم الواقع الإنسانى لذاته ، مهما كان هذا الفهم غامضًا . « ففى كينونة هذا الموجود ، يكون الموجود على صلة مباشرة بكينونته »[3] . ذلك لأن

(١) Sein und Zeit ، ص ٤١ . (٢) المصدر عينه ، ص ٤١ .

(٣) المصدر عينه ، ص ٤٣ .

الفهم ليس مميزًا خارجيًا للواقع الإنسانى، بل هو النحو الذى يوجد عليه. فالواقع الإنسانى ، الذى هو أنا ، يكون مسئولاً عن كينونته بتفهمها . وهذا الفهم هو فهمى أنا . فأنا إذن أولاً كائن يفهم واقعه الإنسانى فهما يتفاوت غموضًا ، وهذا معناه أنى جعلت من نفسى إنسانًا لأنى أفهم نفسى باعتبارى إنسانًا . لذلك أستطيع أن أسأل نفسى ، وبناء على هذا السؤال ، أقوم بتحليل «للواقع الإنسانى» تحليلاً يصلح لأن يكون أساسًا لعلم الإنسان . ولا مجال بالطبع للحديث هنا عن المشاهدة الداخلية ، أولاً لأن المشاهدة الداخلية لا تنصب إلا عن الوقائع ، وثانيًا لأن فهمى للواقع الإنسانى غامض وغير صادق ، ويجب توضيحه وتصحيحه . وعلى أية حال ، فإن مبحث تفسير الوجود سيكون بوسعه أن يقيم علمًا أنثروبولوجيا يصلح أساسًا لعلم النفس أيًا كان . فموقفنا إذن مضاد لموقف علماء النفس لأننا نصدر عن هذا الكل التركيبى الذى هو الإنسان ونضع ماهية الإنسان قبل البدء فى علم النفس .

وعلى أية حال فإن الفنومنولوجية هى دراسة الظاهرات لا الوقائع . ويقصد بالظاهرة «ما يتبدى بذاته» ، ما تكون حقيقته هى الظهور . وهذا «التبدى بالذات» ليس أى شىء . . . فكينونة الموجود ليست شيئًا يستتر «وراءه» شىء آخر «لا يظهر»[1] . والوجود ، عند «هيدجر» ، بالنسبة إلى الواقع الإنسانى ، يعنى أن يكون هذا الواقع الإنسانى مسئولاً عن كينونته

(1) المصدر عينه ، ص ٣٥ - ٣٦ .

بأن يفهمهـا فهما وجوديًا ، والوجود بالنسبـة إلى الشعور ، على ما يرى «هوسرل» ، هو ظهور الشعور لذاته . ومـا دام الظاهر هو المطلق هنا ، كان الظاهر هو ما ينبـغى وصفه وسؤاله . من هذه الناحيـة «هيدجر» أننا نجد الواقع الإنسانى كله فى كل موقف إنسانى ، فـى الانفعال مثلا ، وقد كنا نتحدث عنه منذ هنيهـة . ذلك بأن الانفعال هو الواقع الإنسانى الذى يكون مسئولاً عن نفسه و «يتجه - منفعلا» نحو العالم . ويرى «هوسرل» من جـانبه أن وصـفًا فنومنولوجيـا للانفعـال سوف يكشف عن الأبنـية الجوهرية للشعور ، لأن الانفعال ما هو إلا شعور . وفى مقابل ذلك يقوم إشكال لا يخطر لعـالم النفس على بال : هل يمكن أن نتـصور أن ثمـة شعوراً لا يكون فـيه الانفعال ضـمن ما يحتويه من إمكانيـات، أم ينبغى اعـتبـار الانفـعـال بناء ضـروريًا للشـعـور ؟ وهكذا يسـأل البـاحث الفنومنولوجى الانفعال عن الشعور أو عن الإنسان ، ولن يقتصر سؤاله على ماهية الانفعال ، بل سيسأل الانفـعال عما يستطيع أن يخبرنا به عن كائن إحدى سـماته القدرة على الانفعال . وهو بالضد يسـأل الشعور أو الواقع الإنسانى عن الانفعال . ما الذى يجب أن يكون عليه الشعور حتى يصبح الانفعال ممكنًا بل ضروريًا ؟

نستطيع الآن أن نفهم أسباب ارتياب عالم النفس من الفنومنولوجية . ذلك لأن أول التحـوطات التى يتخـذها عالم النفس هو النظـر فى الحالة النفسية على نحو يجردها من كل معنى . فالحالة النفسية فى رأيه هى دائمًا

واقعة وهى بهذه المثابة عَرَض دائمًا . بل إن هذه السمة العرضية هى أهم ما يتشبث به عالم النفس . فإذا سئل عالم عن علة انجذاب الأجسام وفقًا لقانون «نيوتن»، لأجاب: لست أعرف عنها شيئًا لأن هذا هو ما يحدث. وإذا سئل : ما معنى هذا الانجذاب ؟ فإنه يجيب : إنه لا يعنى شيئًا ، فهذا هو الأمر الواقع . وبالمثل إذا ما سئل عالم النفس عن الانفعال لأجاب بفخر : «الانفعال موجود ، لم ؟ لست أدرى ، وحسبى أن أقرر ما هو موجود دون أن أعرف معناه » . وعلى العكس من ذلك ، يرتأى الفنومنولوجى أن كل واقعة إنسانية هى فى ماهيتها ذات معنى . فإذا جردتها عن معناها ، جردتها عن طبيعتها كواقعة إنسانية . فمهمة الفنومنولوجى إذن هى دراسة معنى الانفعال . فما المقصود بذلك ؟

المعنى هو الدلالة على شىء آخر ، والدلالة عليه بحيث إذا ما بسطنا المعنى ، وجدنا الشىء المعنِىّ نفسه . والانفعال لا يعنى شيئًا فى رأى عالم النفس لأنه يدرسه كواقعة ، أى أنه يقطع الصلة بينه وبين كل شىء آخر . لذلك يصبح الانفعال خلواً من المعنى أصلاً ؛ ولكن إن صح إن لكل واقعة إنسانية معنى ، فإن الانفعال كما يدرسه عالم النفس انفعال ميت بالطبع ، غريب عن الحياة النفسية ، غير متسم بصفة الإنسانية . فإذا أردنا أن نساير الفنومنولوجيين وأن نجعل من الانفعال ظاهرة شعورية حقة ، لتعين علينا بالضد أن نعتبره ذا معنى فى المحل الأول . أى أننا نؤكد أنه موجود بقدر ما يكون له معنى . ولن نشغل أنفسنا بادئ ذى

بدء بدراسة الوقائع الفسيولوجية ، لأنها إذا أخذت بذاتها وعلى حدة ، فهى تكاد لا تعنى شيئًا . فهى موجودة فحسب . بيد أننا سنحاول على الضد توضيح مدلول الانفعال عن طريق بسط معنى السلوك الانفعالى ومعنى الشعور المنفعل . ونحن نعرف منذ البدء ما هو هذا المدلول . فالانفعال يدل على الشعور كله على نحو خاص به ، أو هو يدل على الواقع الإنسانى برمته ، إن وضعنا أنفسنا فى المستوى الوجودى . فهو ليس عَرَضًا لأن الواقع الإنسانى ليس مجموعة من الوقائع . بل هو تعبير خاص عن الكل التركيبى للإنسان فى اكتماله . وليس يجب أن يفهم من ذلك أنه معلول للواقع الإنسانى . فالانفعال هو هذا الواقع الإنسانى حين يحقق ذاته فى صورة «الانفعال» . ومن ثم يمتنع أن نرى فى الانفعال اختلالاً نفسيًا فسيولوجيا . وذلك لأن له ماهيته وأبنيته الخاصة وقوانين ظهوره ومعناه . فهو لا يمكن أن يطرأ من خارج على الواقع الإنسانى . بل هو الإنسان الذى يتخذ صورة الانفعال ومن ثمة كان الانفعال صورة منظَّمة من صور الوجود الإنسانى .

ولسنا نقصد ههنا القيام بدراسة فنومنولوجية للانفعال ، لأن هذه الدراسة فى إجمالها تنصب على الوجدان بوصفه ضربًا وجوديًا من ضروب الواقع الإنسانى . إن مطمحنا أكثر تواضعًا . فسنحاول أن نرى بصدد حالة معينة ، هى حالة الانفعال ، ما إذا كان من الممكن لعلم النفس الخالص أن يستخلص من الفنومنولوجية منهجًا للبحث وبعض

التعاليم. ونحن نسلم بأن علم النفس لا يضع الإنسان موضع السؤال ولا العالم بين قوسين . فهو يتناول الإنسان فى العالم ، كما يتبدى فى حشد من المواقف ، فى المقهى والأسرة والحرب . وعلى وجه العموم ، فإن اهتمامه منصب على الإنسان فى مواقفه . وقد رأينا أنه بهذه المثابة خاضع للفنومنولوجية ، لأن الدراسة الوضعية الحقة للإنسان فى مواقفه يجب أن تبدأ بتوضيح مفاهيم العالم والوجود فى العالم والموقف . غير أن الفنومنولوجية ما تزال فى المهد ولم تبلغ بعد هذه المفاهيم إلى الوضوح النهائى . فهل يجب على علم النفس أن ينتظر حتى تصل الفنومنولوجية إلى دور النضوج ؟ هذا ما لا نعتقده . ولكن إذا كان علم النفس لا يقف مترقبًا قيام علم الإنسان فى صورته النهائية ، فإنه يجب ألا يغفل عن أن هذا العلم ممكن التحقيق ، وأنه متى تحقق يومًا ما فإن على كافة الدراسات النفسية أن تستمد معينها منه . أما فى الوقت الحاضر فإن عليه ألا يتجه إلى جمع الوقائع بقدر ما يتجه إلى استخبار الظاهرات ، أى الأحداث النفسية من حيث هى معانٍ لا من حيث هى وقائع محضة . فهو سيسلم مثلا بأنه لا وجود للانفعال باعتباره ظاهرة جسمية ، لأن الجسم لا يمكن أن يكون منفعلاً لعجزه عن أن يضفى معنى على مظاهره ذاتها ، بل سيسعى علم النفس مباشرة إلى تجاوز اضطراب الأوعية الدموية أو التنفس، إلى معنى الفرح أو الحزن . ولكن لما لم يكن هذا المعنى صفة تنضاف إلى الفرح أو الحزن إضافة خارجية ، ولما كان وجوده هو بقدر ما

يظهر لنفسه ، أى بقدر اتخاذ الـواقع الإنسانى هذه الصورة ، كان الشعور نفسه هو موضع سؤال علم النـفس ما دام الفرح ليس فرحًا إلا من حيث هو يظهر لنفسه باعتباره فرحًا . ولما كان علم النفس لا يبحث عن الوقائع بل عن المعانى ، فإنه سيتخلى عن مناهج المشاهدة الداخلية الاستقرائية أو الملاحظة التجريبية الخارجـية ، لكى يوجه همه إلى إدراك ماهية الظاهرات وتحديدها . فيـتحول هو الآخر إلى علم مـاهوى . بيد أنه لا يهدف إلى إدراك المدلول من حـيث هو كـذلك ، أى الكل الإنسـانى ، من خـلال الظاهرة النفسية . فهو لا يملك ما يكفى من الوسائل للقيام بهذه الدراسة. وإنما سيوجه كل همه إلى الظاهرة من حيث أن لها دلالة . وبالمثل أستطيع أن أعمل على إدراك ماهية «البروليتـاريا» من خلال كلمة «البروليتاريا» . وفى هذه الحالة أقوم بدراسة فى علم الاجتـماع. غير أن عالم اللغة يدرس كلمة البـروليتاريا من حيث دلالتها علـى البروليـتاريا ، فيـهتم بتطورات الكلمة من حيث أنها محل للمعنى . ومثل هذا العلم ممكن تمامًا .

ما الذى ينقـصه لكى يتحـقق ؟ أن يثبت جـدارته . وقد بيّنا أنه إذا كان الواقع الإنسـانى يبدو لعـالم النفس مجـموعة من الوقـائع الخليط ، فذلك لأن عالم النفس قد وضع نفسه عمدًا فى زاوية لابد أن تظهر له هذا الواقع على هذا النحـو . غـير أن هـذا لا يتضـمن بالضـرورة أن الواقع الإنسانى ليس مجـرد مجموعة . وكل مـا برهنا عليه هو أنه لا يمكن أن يظهـر لعالم النفس على خـلاف ذلك . . . يبقـى أن نعرف مـا إذا كان

الواقع الإنسانى يحتمل أصلاً أن يدرس دراسة فنومنولوجية ، أى ما إذا كان الانفعال مثلاً ظاهرة ذات معنى حقًا . ولحسم الأمر ليس ثمة إلا وسيلة واحدة يوصى بها الفنومنولوجى ألا وهى «المضى إلى الأشياء ذاتها». لذلك نرجو اعتبار الصفحات التالية تجربة فى علم النفس الفنومنولوجى ، حيث نحاول أن نضع أنفسنا فى مستوى المعنى وأن نتناول الانفعال باعتباره ظاهرة.

نحو نظرية فى الإنفعالات

١ - النظريات القديمة

أثارت النظرية السطحية فى الانفعالات انتقادات معروفة . إذ كيف يمكن تفسير الانفعالات الرقيقة والفرح السلبى ، وكيف نسلم بأن الاستجابات العضوية العادية تستطيع تفسير الحالات النفسية النوعية ؟ وكيف يمكن لتغيرات كمية ، ومن ثمة شبة متصلة بالوظائف الحيوية ، أن تكون مطابقة لسلسلة كيفية من الحالات الفريدة ؟ مثال ذلك أن التغيرات الفسيولوجية المناظرة للغضب لا تختلف إلا فى الشدة عن مثيلاتها المناظرة للفرح (ارتفاع ضئيل فى سرعة التنفس ، وزيادة طفيفة فى التوتر العضلى، وزيادة فى عمليات التبادل الكيميائية الحيوية وضغط الدم إلخ) : ومع ذلك فليس الغضب فرحاً أشد ، ولكنه شيء آخر ، كما يتبدى للشعور على الأقل . ولا جدوى من إظهار أن فى الفرح تهيجاً يعد

للغضب ، والاستشهاد بأولئك البلهاء الذين لا ينفكون ينتقلون من الفرح إلى الغـضب (وهم يتأرجـحون مـثـلا فوق مـقعـد ويزيدون من سرعـة تأرجحهم) . فالأبـله الغاضب ليس شخصاً «مسرفـاً فى الفرح» . وحتى إن انتقل الأبله من الفرح إلى الغضـب (وليس ثمة ما يمنع من القول بأن حشداً من الأحداث النفسية لم يتدخل خلال فترة الانتقال) فإن الغضـب لا يمكن أن يرد إلى الفرح .

ويبـدو لى أن من الممكن تلخيـص المبدأ الذى تقـوم عليهـا كل هذه الاعتراضات على النحو الآتى :

يميز «وليم جـيمس» فى الانفـعال بين مـجـموعـتين من الظاهرات مجموعة من الظاهرات الفسيولوجيـة ومجموعة من الظاهرات السيكولوجية التى نسميها ، كما يسميها هو ، بالحالة الشعورية . وجوهر موقفه هو أن الحالة الشـعورية المسـماة «بالفـرح والغـضب إلخ» ليست سـوى الشعور بالمظاهر الفسيولوجية ، أو هى - إن شئنا - انعكاسها على الشعور . بيد أن نقاد «جـميس» إذ يفـحصون «الحـالة الشعورية» المسـماة «بالانفـعال» والمظاهر الفسيـولوجية المصاحبة له ، لا يجدون فى الانـفعال انعكاساً أو ظلا لهذه المظاهر . وإنما يجدون فيه شيئاً يعدوها ويختلف عنها ، سواء أشعروا بذلـك شعوراً واضحاً أم لم يشـعروا . هو شىء يعدوها : لانه مهـما بالغنا فى تخيل الاضطرابات الجـسمية ، فلن نسـتطيع أن نفهم لم كان الشعور المقابل لها هو شعـور مفزّع فالفزع حالة مؤلمة كل الألم ، بل

حالة لا تطاق ، وليس يفهم أن حالة جسمية بذاتها وفى ذاتها تتبدى للشعور بهذه السمة القاسية . وهو شيء يختلف عنها : ذلك لأن الانفعال ، وإن بدا من الناحية الموضوعية اضطراباً فسيولوجيا ، إلا أنه لا يمكن أن يكون اضطراباً أو عماء بحتاً من حيث أنه واقعة شعورية ، فهو ذو معنى يدل على شيء . ولسنا نعنى بذلك أنه يتبدى كيفية خالصة فحسب ، بل هو يتجلى باعتباره علاقة معينة لكياننا النفسى بالعالم . وهذه العلاقة ، أو بالأحرى شعورنا بها - ليست رابطة عمياء تربط بين الأنا والكون ، بل هى بناء منظَّم قابل للوصف.

ولست أرى أن الحساسية اللحائية الثلامية ، التى اختلقها أخيراً نقاد «جيمس» أنفسهم ، تستطيع الإجابة على السؤال إجابة شافية . أولا لأن للنظرية السطحية عند «جيمس» ميزة كبرى هى أنها لا تتناول إلا الاضطرابات الفسيولوجية التى يمكن الكشف عنها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . أما نظرية الحساسية المخية فهى تلجأ إلى اضطراب لحائى لا يمكن التحقق منه . وقد أجرى «شيرنجتون» تجارب على الكلاب ، ولا ريب أن براعته التجريبية جديرة بالثناء . بيد أن هذه التجارب فى ذاتها لا تعنى شيئاً ألبتة . فلست أرى أنه يحق الاستدلال من أن رأس الكلب الذى يكاد يكون مفصولا عن الجسم لا ينفك يبدى أمارات الانفعال ، على أن الكلب منفعل انفعالا كاملا . أضف إلى ذلك أننا إذا سلمنا جدلا بوجود حساسية لحائية ثلامية ، فإنه يتعين أن نضع ثانية هذا السؤال

التمـهيدى : هل يمكن لاضطراب فسيولوجي ، أيا ما كان ، أن يفسر الطابع المنظم للانفعال ؟

هذا ما أحسن فـهمه «بييـرجانيه» ، وإن لم يوفق فى التعـبير عنه ، عندما قال إن «جـيمس» قد أغفل العنـصر النفسى فى وصفـه الانفعال . و«جانيه» ينظر إلى المسـألة من زاوية موضوعية خالصـة ، فهو لا يود إلا تسجيل المظاهر الخارجية للانفعال . ولكنه يرتأى ، إذ لا يأخذ فى اعتباره إلا الظواهر العضـوية التى يمكن وصفها والكشف عنـها من الخارج ، أن هذه الظواهر يمكن أن تدخل مـباشرة فى مـقولتين : الظواهر النفسـية أو السلوك ، والظواهر الفسيولوجية . وكل نظرية تريد أن تعيد إلى العنصر النفسى مكانـته الغلابة ، لا بد أن تجـعل من الانفعال سلوكـاً . بيد أن «جانيه» كان ما يزال متأثراً بمظاهر الاضطراب الذى يتسـم به كل انفعال، شأنه فى ذلك شأن «جيمس» . لذلك فهو يجعل من الانفعال سلوكاً ينم عن ضعف التكيف ، أو بعبارة أفضل سلوكاً يدل على سوء التكيف ، أو هو سلوك الفـشل . فحين تكون المـهمـة مفـرطة فى الصعـوبة ، فنكون عاجـزين عن الأخذ بأفضل مـا يلائمها من سلوك ، فـإن الطاقة النفسـية الطليقة تجـد لها مصرفاً آخر : وإذ ذاك نـأخذ بمسلك أدنى يتطلب درجة أقل من التوتر النفسى . مثال ذلك : فتاة لم تكد تسمع أباها يخبرها بأنه يعـانى آلاماً فى ذراعـه ، وأنه يخـشى أن يكون ذلك هو الشلل، حـتى سقطت على الأرض تتلوى من فرط الانفعـال ، ويعود إليها الانفعال بعد

أيام بنفس العنف ، ويجبرها فى النهاية علـى التماس عون الأطباء . وفى أثناء العلاج تعترف بأن فكرة العناية بوالدها وحـياة التمريض الصارمة ، بدت لها فجأة شيئاً لا يمكن احـتماله . فكأن الانفعال يمثل فى هذه الحالة سلوك الفشل ، فهو بديل عن «سلوك التمريض الذى يستحيل الأخذ به». كذلك يسرد «جانيه» فى مؤلفـه عن «الوسواس والضعف النفسى» ، حالة عدد كبـير من المرضى جاءوا يبوحون له بما تخـفى صدورهم ، فلم يقووا على المضى فى اعترافهم ، وانتهى بهم الأمر إلى أن أجهشوا بالبكاء، بل انتابتهم نوبة عـصبية فى بعض الأحايين . ففى هذه الحـالة نجد أيضاً أن السلوك المفـروض أصعب من أن يُتَّبع . فـالدموع والنوبة العـصبيـة تمثل سلوك الفـشل الذى يحـل محـل السلوك ، وتشـتق منه . ولا ضـرورة للإفاضة ، فالأمثلة على ذلك كـثيرة . ومن لا يذكر أنه تبادل لاذع المزاح مع رفيق له ، وأنه ظل هادئاً طالمـا كان الندان متعـادلين ، وأن ثائرته قد ثارت عند ما استـعصى عليه الجواب ؟ وهكذا كان «الجانيـه» أن يفخر بأنه أعاد إلى العنصر النفسى مكانته فى الانفعال : فلم يعد شعورنا بالانفعال - وهذا الشعـور ليس إلا ظاهرة ثانوية[1] - مجرد مـضايف للأضطرابات الفـسيولوجيه ، بل هو شـعور بالفشل وسلوك الفشل. وهذه النظرية تبدو جذابة ، فهى تقوم على مبدأ سيكولوجى مع احتفاظها ببساطة آلية . وما ظاهرة الاشتقاق إلا تغير للطريق الذى تسلكه الطاقة العصبية الطليقة .

---

(١) لا ظاهرة عارضة (épiphénomène) : فالشعور هو سلوك كل أنماط السلوك .

ومع ذلك فما أحفل هذه المفاهيم القليلة بالغموض رغم وضوحها الظاهرى . فإذا أمعنا النظر فى الأمر ، أدركنا أن «جانيه» لا يوفق إلى تخطى «جيمس» إلا باستخدامه ضمناً غائية ترفضها نظريته صراحة . إذ ما هو سلوك الفشل ؟ هل نفهمه باعتباره مجرد بديل آلى لسلوك أرقى لا نستطيع الأخذ به ؟ إن كان ذلك كذلك لانصرفت الشحنة العصبية اعتباطاً وفقاً لقانون المجهود الأدنى . ولكن مجموع الاستجابات الانفعالية لن يكون إذ ذاك سلوك الفشل بقدر ما هو انعدام كل سلوك . سيكون ثمة استجابة عضوية مشتتة بدلا من استجابة مكيفة ، سيكون ثمة اضطراب . ولكن أليس ذلك بالضبط ما يقوله «جيمس» ؟ أليس يظهر الانفعال فى رأيه حين يختل التكيف على نحو مباغت ، وأنه لا يعدو فى جوهره أن يكون مجموع الاضطرابات التى تنجم فى الكائن العضوى عن اختلال التكيف هذا ؟ ولا ريب أن «جانيه» يبرز أهمية الفشل أكثر من «جيمس» . ولكن ما المقصود بذلك ؟ إذا نظرنا إلى الفرد موضوعياً باعتباره نسقاً من أنماط السلوك ، وإذا كان الاشتقاق يحدث على نحو آلى، فلن يكون ثمة فشل ولن يوجد الفشل ، وسيقتصر الأمر على حلول مجموعة مشتته من المظاهر العضوية محل سلوك معين . ولكى يكتسب الانفعال المعنى السيكولوجى للفشل ، ينبغى أن يتدخل الشعور وأن يضفى عليه هذا المعنى ، ينبغى أن يحتفظ الشعور بالسلوك الأرقى بوصفه ممكناً ، وأن يدرك الانفعال بوصفه فشلا بالنسبة إلى هذا السلوك الأرقى.

ولكننا فى هذه الحالة نجعل للشعور دوراً خلاقا ، وهو ما يأباه «جانيه» كل الأباء . فإذا أردنا أن يكون لنظرية «جانيـه» أى معنى ، فلابد من الأخذ بموقف «فالون» . يقترح «فالون» فـى مقال نشرته "Revue des Cours et Conférences" التفسيـر الآتى : توجد لدى الطفل دورة عصبية بدائية ومـجموعة استجابات الوليد للدغـدغة والألم وغير ذلك ، تحددها دائمًا هذه الدورة (الارتعاشات والتقلصات العضلية المشتتة وزيادة سرعة ضربات القلب إلخ) . وهذه الاستجـابات هى أول تكيف عضوى وهو تكيف موروث بطبـيعة الحال . وفيـما بعد نتعلم أنماطاً من السلوك ، ونكتـسب اتجاهات جديدة أى دورات جديدة . بـيد أننا عندمـا نجد أنفسنا فـى موقف جديد صعب فنعجز عن اختبار ما يلائمه من سلوك متوافق ، يحدث نكوص إلى الدورة العصبـية البدائية . من ذلك نرى أن هذه النظرية تنـقل آراء «جانيه» إلى مستـوى المذهب السلوكى الخالص ، لأن الاستـجابات الانفعاليـة عامة لا تظهر باعتبارها اضطرابا مطلقاً ، بل بوصـفها تكيفا أدنى درجة : فالدورة العصبية عند الطفل ، وهى أول نسق منظم من الأفـعال المنعكسة الدفاعية ، لا توافق حـاجات الراشد وإن كـانت فى ذاتها تـنظيمـاً وظيفيـاً مماثلاً للفـعل المنعكس الخـاص بالتنفس مـثلا . ومن ذلك نرى أيضـاً أن هذا الموقف لا يختلف عن موقف «جـيمس» إلا بما يفترضه من وحـدة عضوية تربط بين كافـة المظاهر الانفعاليـة . وغنى عن القول أن «جيـمس» كان يقبل بلا تردد وجود مثل هذه الدورة إذا قام البرهان على وجودها ، وكان يعـتبـر مـثل هذا التعـديل فى نظريتـه أمـراً غيـر ذى بال لأنهـا نظرية

فسيولوجية بحتة . فإذا ما أخذنا بموقف «جانيه» فى حرفيته ، وجدناه أقرب كثيراً إلى «جيمس» مما يود أن يصرح به ، فهو قد أخفق فى محاولة إدخال «العنصر النفسى» فى الانفعال . كذلك فهو لم يفسر لِمَ كانت ثمة أنماط متباينة من سلوك الفشل ؟ لِمَ أستطيع الرد على عدوان مباغت بالخوف أو بالغضب ؟ فضلا عن أن الأمثلة التى يوردها تكاد ترتد كلها إلى اضطرابات انفعالية قليلة التفاضل (الانتحاب والأزمة العصبية إلخ) وهى أقرب ما تكون الى الصدمة الانفعالية بالمعنى الدقيق منها إلى الانفعال الكيفى .

ولكن يبدو أن لدى «جانيه» نظرية ضمنية فى الانفعال - وكذلك فى السلوك عامة - تستعين بالغائية دون أن تصرح بها . ففى كتاباته العامة عن الضعف النفسى أو القدرة الانفعالية ، يلح كما ذكرنا على أن الاشتقاق ذو طابع آلى . ولكنه فى كثير من أوصافه يوحى بأن المريض يلجأ إلى السلوك الأدنى لكيلا يأخذ بالسلوك الأرقى . ففى هذه الحالة يصرح المريض ذاته بفشله حتى قبل بدء المحاولة ، فيجئ السلوك الانفعالى فيخفى استحالة الأخذ بالسلوك المتكيف . ولنرجع إلى المثال الذى أوردناه فيما سبق : جاءت مريضة لمقابلة «جانيه» . فهى ترغب فى الافضاء إليه بسر متاعبها وأن تصف له وساوسها وصفاً دقيقاً . بيد أنها لا تستطيع لأن ذلك مسلك اجتماعى يعدو طاقتها . وإذ ذاك تنتحب . ولكن أهى تنتحب لأنها لا تستطيع أن تقول شيئاً ؟ وهل زفراتها

محاولات عقمية للسلوك ؟ هل هى اضطراب مشتت يمثل تحلل سلوك مسرف فى الصعوبة ؟ أم هى تنتحب لكيلا تقول شيئاً ؟ إن الفرق بين هذين التفسيرين يبدو ضئيلا لأول وهلة : ففى كلا الفرضين سلوك يستحيل الأخذ به ، وفى كلا الفرضين تحل المظاهر المشتتة محل السلوك . لذلك ينتقل «جانيه» فى يسر من أحدهما إلى الآخر : وذلك هو مصدر اللبس فى نظريته . ولكن الواقع أن ثمة هوة تفصل بين هذين التفسيرين: فالتفسير الأول آلى خالص وقريب فى جوهره - كما رأينا - من آراء «جيمس» . أما التفسير الثانى فينطوى على شئ جديد حقاً وهو وحده القمين باسم النظرية النفسية للانفعالات ، وهو ، وحده الذى يجعل من الانفعال سلوكاً . ذلك لأننا إذا أعدنا ادخال الغائية ها هنا ، أمكننا أن نفهم أن السلوك الانفعالى ليس اضطراباً ألبتة : بل هو نسق منظم من وسائل ترمى إلى غاية ويلجأ الفرد إلى هذا النسق (كى يحجب سلوكاً لا يستطيع أو لا يرغب فى الأخذ به - أو كى يستعيده أو يستبدل به سلوكاً غيره) وفى الآن نفسه ، يسهل تفسير تباين الانفعالات . فكل من هذه الانفعالات وسيلة مختلفة لتفادى صعوبة ما ، هو مهرب خاص وحيلة معينة .

غير أن «جانيه» قد قدم إلينا ما كان قدراً على تقديمه ، فهو غير واثق من شىء ، وهو موزع بين الغائية التلقائية وآلية المبدأ . فلن نطلب إليه عرضاً لهذه النظرية الخالصة التى تجعل من الانفعال سلوكاً ، بل إننا

نجدها فى صورة مجملة لدى تلامذة «كولر» ولا سيما «لفين»[1] و«دمبو»[2] وإليك ما كتبه بهذا الصدد «ب.جيوم» فى مؤلفه "Psychologiede de la Forme"[3] .

فلنأخذ أبسط الأمثلة : يطلب من المختبَر أن يبلغ إلى شيء موضوع على مقعد دون أن يتخطى دائرة مرسومة على الأرض . وقد حسبت المسافات بحيث تكون المهمة بالغة الصعوبة أو ممتنعة على نحو مباشر ، وإن كان يمكن حل الإشكال بوسائل غير مباشرة . . . وهنا تكتسب القوة الدافعة إلى الموضوع اتجاهًا واضحًا ملموسًا . ومن جهة أخرى ففى هذا النوع من المشاكل عقبة تحول دون التنفيذ المباشر للفعل ، وقد تكون العقبة مادية أو معنوية : فقد تكون مثلاً قاعدة التزم المختبر بمراعاتها . وهكذا نجد فى مثالنا أن الدائرة التى يتعين على المختبَر عدم تخطيها تبدو له وكأنها حاجز تنبعث منه قوة ذات وجهة مضادة للقوة الأولى . ومن تصارع القوتين ينشأ توتر فى المجال الظاهرى . وبظهور الحل يقضى الفعل الناجح على هذا التوتر . . . وثمة سيكولوجية كاملة لأفعال الأبدال أو الإحلال أو التعويض ساهمت فيها مدرسة «لفين» بنصيب هام يتفاوت شكله كل التفاوت وإن ساعدت النتائج الأولية على تحديده . ففى بعض

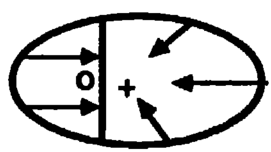
---

(١) Lewin, *Vorsatz, Wille und Bedürtnis,* Psy. Forschung, VII, 1926.

(٢) Dembo, *Das Aerger als dynamisches Problem,* Psy. Forsh. 1931.

(٣) Bib de Philosophie Scientifique ، ص ١٣٨ – ١٤٢ .

الأحايين ييسر المخبَر على نفسه الفعل بأن يخرج على بعض الشروط المفروضة الخاصة بالكم وكيفيتى السرعة والزمن ، بل بتعديله لطبيعة مهمته ذاتها . وفى أحيان أخرى نجدنا حيال أفعال غير واقعية ، أفعال رمزية : فقد يأتى المختبَر بحركة واضحة العقم فى اتجاه الفعل ، وقد يصف هذا الفعل بدلاً من القيام به ، وقد يتخيل الوسائل الخرافية المتوهمة (لو كان عندى ... لكان ينبغى...) دون تقيد بالشروط الواقعية أو المفروضة التى تتيح القيام به . وإذا كانت أفعال الإبدال مستحيلة أو إذا لم تكن كافية لحل الصراع ، ظهر التوتر المقيم فى الميل إلى العزوف عن الاختبار ، أو فى الهرب من الميدان ، أو فى الانطواء على الذات فى موقف سلبى . ولقد قلنا أن المختبَر يجد نفسه خاضعًا لجذب الهدف الإيجابى وللتأثير السلبى المنفر للحاجز . ثم أن قبوله الاشتراك فى التجربة قد أضفى على كافة موضوعات المجال قيمة سلبية ، بمعنى أن كل ما يعرفه عن مهمته يغدو محالاً لهذا السبب عينه . وهكذا يصبح المرء سجينًا بمعنى ما ، داخل سياج مغلق من جميع نواحيه : وليس ثمة إلا مخرج إيجابى واحد ، ولكن الحاجز النوعى يقف دونه . وهذا الموقف يقابل الشكل البيانى التالى :



وما الهرب إلا حل أهوج لأنه يقتضى تحطيم الحاجز العام وقبول تضاؤل الذات . كما أن الانطواء على الذات والانعزال الذى يقيم حاجزاً واقيًا بين المجال العدائى والأنا يعتبر حلا ضئيل القيمة هو الآخر .

وقد تؤدى مواصلة الاختبار فى هذه الظروف إلى الاضطرابات الانفعالية ، وهى صورة أكثر بداوة للتنفيس عن التوتر ، وقد أحسنت «تمارا دمبو» دراسة نوبات الغضب الجائح التى تتبدى أحيانًا لدى بعض الأشخاص . فالموقف ينبسط بناؤه . وفى الغضب ، كما فى سائر الانفعالات ، تضعف الحواجز التى تفصل بين الطبقات العميقة والسطحية للأنا وهى التى تكفل عادة للشخصية العميقة السيطرة على الأفعال وضبط الذات جميعًا ، أى تضعف الحواجز بين الواقع واللاواقع . وبالضد فإن التوتر بين الخارج والداخل لا ينفك يزداد نتيجة لتعطل الفعل ، فتمتد السمة السلبية حتى تشمل موضوعات المجال جميعًا ، فتفقد قيمتها الذاتية . . . وباختفاء الاتجاه المميِّز إلى الهدف . . . ولا يمكن فهم الوقائع الجزئية ولا سيما الاستجابات الفسيولوجية المتباينة التى يطيب للبعض وصفها خالعين عليها معنى خاصًا إلا بإرجاعها إلى هذا التصور الشامل لطوبولوجية الانفعال . . . » .

وها نحن أولاء قد وصلنا فى ختام هذا النص الطويل إلى تصـ وظيفى للغضب . فالغضب ليس غريزة ولا عادة ولا عملية عقلية ولكنه حل مباغت للصراع ، وطريقة لقطع العقدة بالسيف . ولا ريـ

أننا نجد هنا تمييز «جانـيه» بين أنماط السلوك العليا وأنماط السلوك الدنيا أو المشتـقة . إلا أن هذا التمـييز يكتـسب ههنا كامل معناه : فـنحن أنفسنا نضع أنفسنا فى حال من العجز التام ، لأن مطالبنا فى هذا المستوى الأدنى تكون أقل ، فنقنع بـالقليل . وحين نعـجز ونحن فى حـال من التـوتر المرتفع ، عن العثـور على الحل الدقيق المضبـوط لمشكلة ما ، فإننا نتـخذ أنفسنا مـوضوعًا للسلوك ، فنحط من قـدر أنفسنا ، فـتتحـول إلى كائن يرضى بالحلول الفظة الأقل تكيـفًا (كتـمزيق الورقـة المدون فيهـا منطوق المشكلة) . فالغضب يـبدو ههنا وكأنه هرب من الموقف . فالمختـبَر يشبه فى غضبه رجلا عجز عن فك عقد الحبال التى تقيده فأخذ يتلوى فى قيوده فى كل اتجـاه . وإن كان سلـوك الغضب أقل مـلاءمـة لحل المشكلة من السلوك الأرقى - وهو سلوك محال - ، إلا أنه يلائم كل المـلاءمة الحاجة إلى تخفيف التوتر ورفع الثقل الذى ينوء به كاهلنا . ومن ثمة يمكن تفهم الأمثلة التى أوردناها فيـما سبق : فالمريضة بالضـعف النفسى التى جاءت لرؤية «جـانيه» ترغب فى الكشف له عـما تخـفى فى صدرها . غـير أن المهمة تعـدو طاقتها . فهى تجد نفـسها فى عالم ضيق الحـدود يتهددها ، يطالبها بفعل محدد ويحرمه عـليها فى الآن نفسه . ثم أن موقف «جانيه» يدل على أنه يصغى وينتظر ، ولكنه فى الوقت عينه يمنع هذا الاعتراف بما له من مكانة وشخصية وغـير ذلك . فلابد من الفرار من هذا التوتر الذى لا يطاق ، والمريضة لا تستطيع ذلك إلا بالمبالغة فى ضـعفها وحيرتها ،

ونقل اهتمامها من الفعل المطلوب إلى ذاتها («ما أشقانى») ، ومن ثمة تحويل «جانيه» من قاضٍ يحكم إلى صديق يواسى ، وإظهار عجزها عن الحديث والمبالغة فيه ، وتغيير ضرورة الادلاء بمعلومات معينة إلى ضغط ثقيل غير متمايز يفرضه العالم عليها ، وإذ ذاك يبدأ الانتحاب والتشنج . كذلك يسهل تفهم سورة الغضب التى تتملكنى حين أفحم فى الرد على شخص يمزح معى . فليس للغضب ههنا نفس الدور الذى يقوم به فى مثال «دمبو» ، وإنما هو يستهدف نقل المناقشة إلى مستوى آخر : فما دمت قد عجزت عن أن أكون سريع النكتة ، فلأكن مخيفًا مرهوب الجانب . فأنا أريد بث الرعب . وفى الوقت نفسه فإنى استخدم الوسائل المشتقة (البديلة) للتغلب على خصمى ، ألا وهى السباب والتهديدات التى «تحل محل» النكتة التى عجزت عن ابتكارها ، فأصبح بهذا التحول المباغت الذى فرضته على نفسى أقل التزامًا باختيار الوسائل .

إلا أننا لا يمكن أن نرضى بما توصلنا إليه حتى الآن . إن نظرية الانفعال الذى هو سلوك ، نظرية لا شائبة فيها ،لكننا نرى نقصها فى نقائها وكمالها بالذات . ففى كل الأمثلة التى سقناها ، لا سبيل إلى إنكار الدور الوظيفى للانفعال ، بيد أن هذا الدور غير مفهوم من حيث هو كذلك . وإنى أفهم أن «دمبو» وأصحاب سيكولوجية الصيغ يفسرون الانتقال من حالة البحث إلى حالة الغضب باختفاء صيغة وبتكون صيغة أخرى . وإنى أستطيع أن أفهم اختفاء صيغة «مشكلة بدون حل» ،

ولكن كيف يمكنني الاعتراف بظهور صيغة ؟ لا شك أنها تظهر بوصفها بديلا عن الأولى وهي لا توجد إلا بالنسبة إلى الأولى . فثمة إذن عملية واحدة هي عملية تحول الصيغ . ولكنني لا أستطيع فهم هذا التحول إن لم أضع الشعور بادئ ذي بدء . فهو وحده القادر - بفضل نشاطه التركيبي - على وضع حد للصيغ وتكوينها بلا انقطاع . وهو وحده الذي يستطيع أن يفسر غائية الانفعال . وفضلا عن ذلك فقد رأينا أن وصف «جيوم» الغضب نقلاً عن «دمبو» يظهر الغضب وكأنه يستهدف تغيير مظهر العالم. إذ ثمة «إضعاف للحواجز بين الواقع واللاواقع» ، و «القضاء على البنيان المتمايز الذي تخلعه المشكلة على المجال» . نِعْم الرأي ، ولكننا لا نستطيع الاكتفاء بسيكولوجية الصيغ ما دام الأمر هو وضع علاقة بين الأنا والعالم ، فمن الواضح الجلي أنه لابد من اللجوء إلى الشعور . أو ليس يلجأ «جيوم» إليه في النهاية حين يقول إن الشخص الغاضب «يضعف الحواجز التي تفصل بين الطبقات العميقة والسطحية للأنا » ؟ وهكذا فإن نظرية «جيمس» الفسيولوجية أفضت بنا ، بما فيها من نقص ، إلى نظرية «جانيه» في أنماط السلوك ، وتأدينا من هذه النظرية إلى نظرية الانفعال بوصفه صيغة وظيفية ، ثم ردتنا هذه الأخيرة في نهاية المطاف إلى الشعور، وكان يتعين علينا البدء منه . لذلك يحسن بنا الآن أن نصوغ المشكلة الحقيقية .

٢ - نظرية التحليل النفسي

لا يمكن فهم الانفعال ما لم نبحث فيه عن معنى . وهذا المعنى وظيفي بالطبع . ومن ثمة فنحن مسوقون إلى الكلام عن غائية الانفعال . وهذه الغائية ندركها بصورة ملموسة محسة حين نفحص السلوك الانفعالي فحصا موضوعيا . ولسنا حيال نظرية تتفاوت غموضا تجعل من الانفعال غريزة وتقوم على مبادئ أولية أو على مسلمات . فمجرد النظر في الوقائع يؤدي بنا إلى حدس تجريبي للمعنى الغائي للانفعال . ومن جهة أخرى، إذا أردنا تثبيت ماهية الانفعال في حدس كامل ، بوصفه واقعة اجتماعية، وجدنا هذه الغائية متضمنة في بنيانه . وقد فطن كافة علماء النفس الذين تأملوا في نظرية «جيمس» السطحية إلى هذا المعنى الغائي ، وإن تفاوتوا في ذلك : فهذا المعنى هو ما يخلع عليه «جانيه» اسم «العنصر النفسي» ، وهو ذاته ما حاول علماء النفس أو علماء وظائف الأعضاء أمثال «كانون» و «شرينجتون» إدخاله في وصفهم الوقائع النفسية بافتراضهم وجود حساسية حشائية ، وهو ذاته ما نجده عند «فالون» وعند مدرسة سيكلوجية الصيغ من بعده . وتفترض هذه الغائية تنظيما تركيبيًا لأنماط السلوك لا يمكن إلا أن يكون إما اللاشعور الذي يقول به المحللون النفسيون أو الشعور . ثم إنه من السهل إلى حد ما وضع نظرية تحليلية في الانفعال بوصفه غائية . فيمكن بغير جهد مفرط إظهار الغضب أو الخوف بوصفهما وسيلتين تستعين بهما الميول اللاشعورية لتشبع نفسها

إشبـاعا رمـزيًا ، وللقضـاء على حالة من التـوتر لا تطاق . وعلى هذا النحو يمكن تفـسير هذه السـمة الجوهرية للانفـعال وهى أنه يفرض نفسه وأنه مباغت فى ظهوره ، وأنه يتطور وفقًا لقوانينه الخاصة دون أن تتمكن تلقائيتنا الشعورية من التأثيـر فى مجراه تأثيراً ملحوظًا . وهذا الفصل بين السمة المتظِّمة للانفعال مع طرح سياقها المنظِّم فى اللاشعور ، وبين سمته المحتـومة التى لا يمكن أن تكون كذلك إلا بالنسـبة لشعـور الفرد ، هذا الفصل يؤدى لعلم النفس التـجريبى نفس الخدمة التـى أداها للميتافـيزيقا تمييز كنت بين الطابع التجريبى والطابع الجوهرى للأشياء .

ولا جدال فى أن سيكولوجية التـحليل النفسى هى أول ما أبرز معنى الوقائع النفسية ؛ أى أنها أول ما أكد أن كل حالة شعورية تمثل شيئًا آخر غيرها . مثال ذلك أن السرقة الخرقاء التى يقترفها مريض بوسواس الجنس ليـست مجـرد «سرقـة خرقـاء» ، بل إنها تحيلنا إلى شىء آخر إذا مـا اعتبرناها مع المحللين النفـسين ظاهرة من ظواهر عقاب الذات . فهى تحيل إذ ذاك إلى العقدة الأولى التى يحـاول المريض التبرأ منها بتوقـيع العقاب على ذاتـه . من ذلك نرى أنـه من الممكـن وضع نظرية تحـليليــة فى الانفعـال. ولكن أليست هذه النظرية موجـودة فعلاً ؟ تلك امـرأة تعانى خوفا مرضيا من شجر الغار ، فما أن ترى حشدا منها حتى يغمى عليها. ويكتشف المحلل النفسى فى طفولتها حـادثا جنسيا أليما مرتبطا بدغل من الغار . فمـا طبيعة الانفعـال هنا ؟ إنه ظاهرة رفض ورقابة . ولكنه ليس

رفضا للغار بل هو رفض لاستعادة الذكرى المرتبطة بالغار . فالانفعال فى هذه الحالة هروب من تكشف الحقيقة ، كما يكون النوم أحيانا هروبا من اتخاذ قرار ، وكما يكون مرض بعض الفتيات ، فى رأى «شتيكل» ، هروبا من الزواج . وبالطبع ليس الانفعال هروبا دائمًا . ويمكن أن نلمح لدى المحللين النفسيين تفسيراً للغضب باعتباره إشباعًا رمزيا لميول جنسية . ولا وجه لرفض أى من هذه التفسيرات . فلا شك أن الغضب قد يدل على السادية . ومن المؤكد أن الإغماء الناجم عن الخوف السلبى قد يدل على الهرب والبحث عن ملاذ ، وسنحاول التعليل لذلك . أما موضع الخلاف هنا فهو المبدأ نفسه الذى تقوم عليه تفسيرات التحليل النفسى ، وهو ما سنعرض له بالفحص الآن . .

إن التفسير التحليلى يتصور الظاهرة الشعورية باعتبارها إشباعا رمزيا لرغبة تكبتها الرقابة . ولننتبه إلى أن الرغبة بالنسبة إلى الشعور غير متضمنة فى تحقيقها الرمزى . وبقدر ما هى موجودة بشعورنا وفى شعورنا، فهى ما تظهر عليه فحسب : انفعال ، رغبة فى النوم ، سرقة ، خوف مرضى من الغار . . . إلخ . فإذا كان الأمر على غير ذلك ، وإذا كان لدينا شعور ما – ولو ضمنيًا – برغبتنا الحقة ، لكان ذلك منا تمويها شعوريا على الذات ، وهو ما لا يعنيه المحلل النفسى . وينجم عن ذلك أن معنى سلوكنا الشعورى خارج تمامًا عن هذا السلوك نفسه ، أو بعبارة أفضل ، فإن المدلول يكون منقطع الصلة تمامًا بالدلالة . فسلوك الفرد فى

حد ذاته هو ما هو (إذا ما سمينا «فى حد ذاته» ما هو لذاته) وإن كان من الممكن فك رموزه بالاستعانة بالطرق الفنية المناسبة ، كما نفك رموز لغة مكتوبة. وموجز القول ، فإن الواقعة الشعورية بالنسبة للمدلول ، شأنها شأن الشيء ، هى معلولة لحدث معين وهى موجودة بالنسبة لهذا الحدث ، فهى كآثار نار أوقدت على جبل بالنسبة إلى من أوقد هذه النار. فوجود الآخرين ليس متضمنا فيما تخلف من رماد ، بل هم مرتبطون به برباط من العلية ، والرباط خارجي ، وآثار النار سلبية بالنسبة إلى هذه العلاقة العلية كما هو شأن كل معلول بالنسبة إلى علته . وإن لم يحصل الشعور على المعلومات الفنية اللازمة لما استطاع إدراك هذه الآثار باعتبارها علامات . وفى نفس الآن ، فإن هذه الآثار هى ما هى ، أى أنها موجودة فى ذاتها مستقلة عن كل تأويل يخلع المعنى : فهى قطع من خشب نصف متفحم ، ليس إلا .

هل يمكننا التسليم بأن واقعة شعورية ما يمكن أن تكون كالشيء الجامد بالنسبة إلى معناها ، أى أنها تتقبله من خارج كما تتقبل صفة خارجية ، كالكيفية الخارجية التى تنضاف إلى الخشب المحروق من جراء احتراقه على يد الناس أرادوا أن يتدفأوا ؟ يبدو بادئ ذى بدء أن أولى نتائج مثل هذا التفسير هى جعل الشعور شيئًا جامدًا بالنسبة إلى المدلول ، والاعتراف بأن الشعور يؤلف من نفسه معنى دون أن يكون شاعرًا بالمعنى الذى يؤلفه . وهذا تناقض صارخ اللهم إلا إذا اعتبرنا الشعور موجودا من

نفس النمط الذى ينتمى إليه الحجر أو الغطاء . وفى هذه الحالة ، يجب التخلى عن الكوجيتو الديكارتى على الإطلاق ، وجعل الشعور ظاهرة ثانوية سلبية . ذلك لأن الشعور من حيث هو مجعول لنفسه لا يمكن أن يكون إلا ما يظهر به لنفسه . فإن كان للشعور معنى ، فلابد من أن يتضمنه باعتباره بنيانا شعوريا . وهذا لا يعنى أن هذا المعنى يجب أن يكون صريحا كل الصراحة . فثمة درجات ممكنة من الكثافة والوضوح . وإنما يعنى فقط أنه ينبغى ألا نستخبر الشعور من خارج كما نستخبر آثار النار أو المعسكر ، بل من داخل ، وإنه ينبغى أن نبحث فيه عن المعنى . فإذا كان من الضرورى أن يكون الكوجيتو ممكنا ، فإن الشعور هو الواقعة والدلالة والمدلول جميعًا .

والحق أن ما يجعل الدحض الشامل للتحليل النفسى أمرًا عسيرًا هو أن المحلل النفسى لا يعتبر أن المعنى ينضاف إلى الشعور إضافة خارجية تمامًا . فهو يرتأى أن ثمة مماثلة داخلية بين الواقعة الشعورية والرغبة التى تعبر عنها ، لأن الواقعة الشعورية رمز من حيث تعبيرها عن العقدة . ومن الجلى أن هذا الطابع الرمزى فى رأى المحلل النفسى ليس خارجيا عن الواقعة ذاتها ، بل هو مقوِّم لها . ونحن نتفق مع المحلل النفسى على هذه النقطة كل الاتفاق : فلا شك مطلقا عند من يؤمن بالقيمة المطلقة للكوجيتو الديكارتى فى أن التمثيل الرمزى هو المفهوم للشعور الرمزى. بيد أن موضع الخلاف هو الآتى : إذا كان التمثيل الرمزى مقوِّما

للشعور ، كان من الممكن إدراك علاقة داخلية مفهومة بين التمثيل الرمزى والرمز . غير أنه يجب التسليم بأن الشعور يجعل من نفسه تمثيلا رمزيا . وفى هذه الحالة لا يوجد شيء وراءه وتكون العلاقة بين الرمز والمرموز إليه والتمثيل الرمزى علاقة داخل بنيان الشعور ذاته . ولكن إذا أضفنا أن الشعور يرمز لأنه خاضع لتأثير واقعة خارجية عنه هى الرغبة المكبوتة ، فإننا نقع ثانية فى النظرية السابقة التى تجعل من العلاقة بين المدلول والدلالة علاقة علية . والتحليل النفسى يقع فى تناقض عميق إذ يضع فى الآن نفسه رابطة علية ورابطة مفهومة بين الظواهر التى يدرسها ، فهذان النمطان من الروابط لا يتفقان . لذلك يضع مفكروا التحليل النفسى روابط علية خارجية جامدة بين الوقائع المدروسة (فكرة الدبابيس تدل دائمًا فى الحلم على أثداء النساء ، ودخول عربة القطار يدل على العملية الجنسية) ، بينما يوفق ممارس التحليل فى ممارسته لأنه يدرس الوقائع الشعورية من زاوية الفهم أى أنه يبحث فى غير جمود عن العلاقة الشعورية الداخلية بين التمثيل الرمزى والرمز .

ونحن من جانبنا لا نرفض التحليل النفسى إذا كان الفهم هو السبيل الذى أدى إليه . ولكننا نقتصر على إنكار كل قيمة وكل معقولية لنظريته الضمنية فى العلية النفسية . ثم إننا نقرر أنه ما دام المحلل النفسى يستعين بالفهم لتفسير الشعور ، فإنه يحسن الاعتراف صراحة بأن كل ما يحدث فى الشعور لا يمكن أن يفسر إلا بالشعور ذاته . وها نحن أولاء ، قد

عدنا على نقطة بدئنا : إن نظرية الانفعال التى تقـرر أن الوقائع الانفعالية ذات مـعنى ، يجب عليهـا أن تبحـث عن هذا المعنى فى الشعـور ذاته . وبعبـارة أخرى إن الشـعور هو الذى يجعل من نفسه شعوراً منـفعلاً من أجل تمثيل رمزى داخلى .

ولا شك فى أن أصحاب التحليل النفسى لن يلبثوا أن يثيروا صعوبة تتعلـق بالمبدأ : إذا كان الشـعور ينظم الانفـعال بوصـفه نمطًا مـعينًا من الاستجابة الملائمة لموقف خارجى ، فكيف لا يكون شاعراً بهذه الملاءمة ؟ ويتعين الاعتراف بأن نظريتهم تفسر هذا الفصل بين المعنى والشعور تفسيراً كاملاً . وهو أمر غير مستغـرب لأنها وضعت لهذا الغرض عينه . وأكثر من ذلك فـإننا ، على حـد قولهم ، نصـارع تطور المظاهر الانفـعاليـة، باعتبارنا تلقائية شعورية ، فـنعمل على السيطرة على خوفنا وتهدئة غضبنا وقمع نحيبنا . وهكذا فنحن لا نشعر بغائية الانفعال ، بل ونبعد الانفعال عنا بـكل قـوانـا وهو يغـمـرنا بـالرغم منا . ويتـعين علـى الوصف الفنومنولوجى للانفعال أن يرفع هذه المتناقضات .

٣ - نحو نظرية فنومنولوجية

قد تساعـدنا فى بحثنا ملاحظة تمهيدية يمكن أن تكون بمثـابة نقد عام لكل نظريات الانفـعـال التى تعـرضنا لها (وربما اسـتـثنينا منهـا نظرية «دمبو»). ففى رأى غالبية علماء الـنفس تجرى الأمور كما لو كان الشعور

بالانفعـال شعوراً انعكاسيـا فى المحل الأول ، أى كما لو كـانت الصورة الأولى للانفعال من حيث هو واقعة شـعورية ، هى أن يتبدى لنا بوصفه تعديلا فى كيـاننا النفسى ، أو بعبارة مألوفـة أن يدرك أولاً بوصفه حالة شعورية . ولا شك أن من الممكن الإحـساس بالانفـعال باعـتباره بـنياناً وجدانيًا للشعور والقول : إنى غـضبان ، إنى خائف . . . إلخ . بيد أن الخـوف ليس فى أصله شعـورا بالخوف ، كمـا أن الإدراك الحسى لـهذا الكتاب ليس شعورا بالإدراك الحسى للكتاب . إن الشعـور الانفعالى هو أولاً شعور غير انعكاسى ، وهو فى هذا المستوى لا يمكن أن يكون شعوراً بذاته إلا على نحو غـير مقـصود . إن الشعور الانفـعالى هو أولاً شعور بالعالم . ولسنا فى حاجة إلى استرجـاع النظرية الكاملة فى الشعور لفهم المبـدأ بوضوح ، وإنما نكتـفى ببعض مـلاحظات بسيطة من الغـريب أن علماء النفس البـاحثين فى الانفعال لم يفطنوا إليـها قط . فمن الجلى أن الإنسان الخائف يخاف من شىء ما وحتى فى حالات القلق الغامض الذى يحس به المـرء فـى الظلام وفـى ممـر كئيب مـوحش . . . إلخ فإن المرء ما يزال يخـاف من بعض جوانب الليل ، مـن بعض جـوانب العالـم . ولا ريب أن جميع علماء النفس قد لاحظوا أن الانفـعال يثيره إحسـاس ، أو تصور هو بمثابة إشارة . . . إلخ . . ولكن يبدو أن الانفعال فى رأيهم ينأى بعد ذلك عـن الموضوع ويستـغرق فى ذاته . ولسنا فى حـاجة إلى طول روية لكى نتحـقق من أن الانفعال – على الضـد – يعود فى كل آن

على الموضوع ويتشبع به . فهم يصفون الهرب فى حالة الخوف مثلا وكأنه ليس قبل كل شىء هربا من موضوع معين ، وكأن موضوع الهرب غير حاضر دائمًا فى نفس فعل الهرب باعتباره الباعث عليه وسبب وجوده، باعتباره ما نهرب منه . وكيف نتحدث عن الغضب حيث الضرب والسباب والتهديد ، دون أن نذكر الشخص الذى يمثل الوحدة الموضوعية لهذه الإهانات ولهذه التهديدات ولهذه الضربات ؟ وموجز القول ، فإن الشخص المنفعل والموضوع الباعث على الانفعال يجمع بينهما بناء لا تنفصم عراه . والانفعال هو أسلوب معين لإدراك العالم . وهو ما فطنت إليه «دومبو» وحدها وإن لم توضح سببه . فالفرد الباحث عن حل مشكلة عملية موجود بالعالم وهو يدرك العالم فى كل لحظة من خلال كل ما يأتى به من أفعال . فإن أخفق فى محاولاته ثارت ثائرته ، وثورته ذاتها مظهر يبدو له العالم فيه . وليس من الضرورى أن يرجع الفرد على ذاته فى اللحظة التى تفصل بين الفعل الفاشل والغضب ، فيضع بينهما شعوراً انعكاسيًا . فقد يكون ثمة انتقال مستمر بين الشعور المباشر «بالعالم بوصفه موضوعًا للفعل» (العمل) إلى الشعور المباشر «بالعالم البغيض) (الغضب) ، والشعور الثانى تحوّل للأول .

ولكى يحسن القارئ فهم ما يلى ، يتعين عليه أن يستحضر فى ذهنه ماهية السلوك غير الانعكاسى . إن ثمة نزعة غالبة إلى الاعتقاد بأن الفعل هو انتقال مستمر من المجال اللانعكاسى إلى المجال الانعكاسى أى من

العالم إلى أنفسنا . فنحن ندرك المشكلة (لا انعكاس ، شعور بالعالم) ثم ندرك أنفسنا من حيث أن علينا حل المشكلة (لا انعكاس) ، وابتداء من هذا الانعكاس نتصور فعلا يجب علينا الأخذ به (انعكاس) ، ثم ننزل إلى العالم لتنفيذ الفعل (لا انعكاس) دون أن نأخذ فى اعتبارنا سوى موضوع الفعل . وفيما بعد ، فإن كل صعوبة جديدة نلقاها وكل فشل جزئى يتطلب إحكام التكيف ، يردنا إلى المستوى الانعكاسى . ومن ثم تحدث ذبذبة متصلة مقوّمة للفعل .

ولا شك أننا نستطيع الرجوع على فعلنا . غير أن الفرد غالبًا ما يقوم بعمله فى العالم دون أن يبارح المستوى اللاانعكاسى . مثال ذلك أنى الآن أكتب دون أن أكون شاعراً بأنى أكتب . وقد يقال إن العادة قد جعلتنى لا أشعر بحركات يدى وهى ترسم الحروف . وهو قول غير معقول . وقد أكون معتادًا على الكتابة ولكنى لست معتادًا على كتابة كلمات معينة فى نظام معين . وعلى وجه العموم يجب الحذر من التفسيرات القائمة على العادة . والحق أن فعل الكتابة ليس لا شعوريًا ألبتة ، بل هو بنيان فعلى لشعورى دون أن يكون شعوراً بذاته . فالكتابة هى الشعور الفعال بالكلمات وهى تظهر تحت قلمى . وهى ليست شعوراً بالكلمات من حيث أنى أكتبها : فإنى أدرك الكلمات بداهة باعتبار أن لها تلك الخاصية البنائية وهى أنها تخرج من عدم ، وهى مع ذلك لا تخلق نفسها بل تخلق خلقًا سلبيًا . فحين أرسم كلمة فإنى لا ألتفت إلى كل

انحناءة تخطها يدى على حدة ، وإنما أكون فى حالة خاصة من الترقب ، من الترقب الخلاّق ،، أترقب أن تحل الكلمة - التى أعرفها مقدمًا - فى يدى وهى تكتب وفى الانحناءات التى ترسمها لكى تتحقق . ولا شك أنى لا أشعر بالكلمات التى أكتبها مثل شعورى وأنا أقرأ ما يكتبه شخص ما بينما أنا أنظر من فوق كتفه . ولكن هذا لا يعنى أنى أشعر بنفسى كاتبًا . وها هى الفروق الجوهرية . أولاً : أن إدراكى الحدسى لما يكتبه جارى هو من قبيل «البينة المحتملة» . فأنا أدرك الكلمات التى ترسمها يده قبل أن تنتهى من رسمها . ولكن حين أقرأ «مستقـ . . .» فأدرك بالبداهة «مستقل» ، فإن كلمة «مستقل» تظهر باعتبارها واقعًا محتملاً (من قبيل المنضدة أو المقعد) . وعلى الضد من ذلك فإن إدراكى الحدسى للكلمات التى أكتبها يظهرها لى باعتبارها يقينية . واليقين ههنا من نوع خاص ، فليس من المؤكد أن تظهر كلمة «اليقين» التى أنا بسبيل كتابتها (فقد أزعج أو قد أغير رأيى إلخ)، ولكن المؤكد أنها إن ظهرت فستظهر بهذه الصورة . وهكذا يؤلف الفعل طبقة من الموضوعات اليقينية فى عالم محتمل . ولنقل إن شئنا أن هذه الموضوعات ممكنة من حيث هى موجودات واقعية مستقبلة ولكنها يقينية من حيث هى إمكانيات للعالم . والفرق الثانى أن الكلمات التى يكتبها جارى لا تقتضى شيئًا منى ، فأنا أتأملها فى نظام ظهورها المتتابع كما لو كنت انظر إلى منضدة أو مشجب. وبالعكس من ذلك فإن الكلمات التى أكتبها تعتبر مطالب

ملحة. وإن ما يـجعلهـا كذلك لهـو النحو الذى أدركـها به من خـلال نشاطى الخلاّق ؛ فهى تتبدى بوصفها إمكانيات يتعين أن تتحقق . وليس معنى هذا أنها يتـعين أن تتحقق بمعرفتى أنا ، فالأنا لا يظهـر هنا على الإطلاق ، وإنما أحس فقـط بجذبها لى ، أحس مـوضوعيًا بمـا يقتضـيه منى. فأنا أراها وهى تتحقق وفى الآن نفـسه تطالب بالمزيد من التحقق . وفى طوعى أن أفكر فى الكلمات التى يرسمها جارى باعتبار أنها تقتضى منه تحقيقها ، ولكنى لا أحس بهذا الاقتضاء . وبالضد فـإن مقتضيات ما أسطر من كلمات تكون حاضـرة مباشرة ثقيلةً محسـوسة. فالكلمات تدفع يدى وتقودها ، لا كمـا تدفعها وتشدها بالفـعل صغار نشطة من الجن ، بل إن مقتـضياتها سلبـية . أما يدى فأنا أشـعر بها بمعنى أنى أحـياها مباشرة بوصفـها أداة تتحقق بها الكلمات . فهى أحـد موضوعات العالم ولكنها فى الآن نـفسه مـوضوع حاضـر مُعاش . وهأنا الآن أتردد . هل أكتـب «إذن» أم «بالتالى» ؟ إن ذلك لا يتـضمن قط عـوداً على الذات ، وكل مـا فى الأمـر أن الإمكانيـتين «إذن» و «بالتـالى» تظهـران بما همـا إمكانيتان فتتصارعان . وسوف نحاول فى موضع آخر أن نصف بالتفصيل العالم الذى يقع عليـه الفعل . والمهم الآن هو أن نبين أن الفعل شـعور تلقائى مـباشر وأنه يكوّن فى العالم طبـقة وجودية وأنه ليس مفـتقراً فى فعله لأن يشعر بذاته فعـالا ، وإنما الأمر على العكس من ذلك . وصفوة القول ، أن السلوك اللانعكاسى ليس سلوكًا شعـوريًا بل هو سلوك يشعر بذاته على نحـو غير قـصدى . وأسلوبه فى الشـعور بذاته عن قـصد هو تعدى ذاته وإدراكه فى العالم ما يشبه كيفية من كيفيات الأشياء .

لذلك يمكن فهم كافة هذه المطالب والتوترات فى العالم الذى يحيط بنا ، ويمكن رسم خريطة «مسارية»[1] للعالم المحيط بنا (Umwelt) ، وهى خريطة تتغير وفقًا لأعمالنا وحاجاتنا . وكل ما هنالك أن الموضوعات المطلوب تحقيقها ، تبدو فى الفعل السوى المتكيف وكأنها يجب أن تتحقق بطرق معينة ، كما تبدو الوسائل باعتبارها إمكانيات تطالب بالوجود . ويمكن تسمية هذا الإدراك للوسيلة باعتبارها الطريق الوحيد الممكن لبلوغ الهدف (أو إذا كان هناك عدد «ن» من الوسائل ، باعتبارها العدد «ن» من الوسائل الممكنة وحدها إلخ) يمكن تسميته بالحدس البرجماتى لجبرية العالم .

ومن هذه الناحية يظهر العالم الذى يحيط بنا - وهو ما يسميه الألمان Umwelt - عالم رغائبنا وحاجاتنا وأفعالنا ، وكأنه قد شقت فيه طرق ضيقة محتومة تؤدى إلى هذا الهدف المحدد أو ذاك ، أى تؤدى إلى ظهور موضوع مخلوق . وثمة بالطبع شراك وأفخاخ هنا وهناك وفى كل مكان تقريبًا . ويمكن مقارنة هذا العالم بالألواح المتحركة لأجهزة اللعب التى تدحرج عليها الكرات : فثم طرق مرسومة بصفوف الدبابيس وغالبًا ما تحفر الثقوب عند تقاطع الطرق . ويتعين على الكرة أن تقطع مسارًا محددًا باتباع طرق معينة ودون أن تسقط فى الثقوب . هذا العالم صعب . ومفهوم الصعوبة هذا ليس مفهومًا انعكاسيًا يتضمن رجوعًا على الأنا .

---

(١) hodologique : اصطلاح « لفين » .

بل إن الصعوبة شيء مباشر ، موجود فى العالم ، هى كيفية للعالم تتبدى للإدراك الحسى (مثلها فى ذلك مثل الطرق المؤدية إلى الإمكانيات والإمكانيات ذاتها ومطالب الموضوعات : كتب يتعين قراءتها ، أحذية يتعين ترقيعها إلخ) ، هى المقابل الموضوعى لما نشرع فيه أو نتصوره من نشاط .

ونستطيع الآن أن نتصور ما هو الانفعال . إنه تغيير للعالم . وعندما يصعب السير في الطرق المرسومة ، أو عندما لا نرى الطريق ، يستحيل علينا المكوث فى عالم بهذا الإلحاح وهذه الصعوبة . فكل الطرق مسدودة ومع ذلك يتعين العمل . وإذ ذاك نحاول تغيير العالم أى نحاول أن نحياه كما لو لم تكن العلاقات بين الأشياء وإمكانياتها خاضعة لعمليات حتمية ، بل خاضعة للسحر . وليس الأمر مجرد لعبة نلعبها : بل نحن مجبرون على ذلك ، ونحن نستغرق فى الموقف الجديد ونتفانى فيه بكل ما نملك من قوة . ثم إن هذه المحاولة ليست شعورية بما هى كذلك وإلا لأصبحت موضوعًا للفكر . بل هى قبل كل شيء إدراك لروابط جديدة ومطالب جديدة . ولكن لما كان إدراك الموضوع محالاً أو مثيراً لتوتر لا يطاق ، فإن الشعور يدركه أو يعمل على إدراكه على نحو آخر ، أى أنه يغير نفسه لكى يغير الموضوع . وهذا التغيير فى اتجاه الشعور ليس غريبًا فى حد ذاته . فنحن نجد آلاف الأمثلة لتغيرات مماثلة فى مجال الإدراك الحسى . فالبحث مثلاً عن مشكل مخبأ فى لغز مصور

(« أين هى البندقية ؟») معناه أننا نسلك من الصورة مسلكًا إدراكيًا حسيًا جديدًا ، معناه أننا نسلك من فروع الشجرة وأعمدة التلغراف فى الصورة، وكأننا بإزاء بندقية ، معناه أننا نحرك أعيننا كما نحركها أمام بندقية . ونحن لا ندرك هذه الحركات من حيث هى كذلك ، بل من خلالها يتجه قصد شعورى إلى الأشجار والأعمدة بوصفها «بنادق ممكنة» حتى يتبلور الإدراك الحسى فجأة وتظهر البندقية . فالقصد يتعدى هذه الحركات التى تؤلف مادته . وهكذا ندرك موضوعًا جديدًا أو موضوعًا قديمًا على نحو جديد ، من خلال تغيير القصد الشعورى أو من خلال تغيير السلوك . ولا حاجة إلى الوقوف أولاً فى المستوى الانعكاسى . فالشرح والرسم يكونان حافزًا مباشرًا . فنحن نبحث عن البندقية دون أن نبارح المستوى اللاانعكاسى . أى أنه تبدى بندقية ممكنة فى موضع ما من الصورة . وعلى نفس النمط يجب تصور ما يميز الانفعال من تغير فى القصد والسلوك . فاستحالة العثور على حل للمشكلة ، وهى استحالة يدركها الفرد موضوعيًا بوصفها كيفية للعالم ، تدفع الشعور اللاانعكاسى الجديد إلى إدراك العالم على نحو آخر وفى مظهر جديد ، وتحدد سلوكًا جديدًا - يدرك الفرد من خلاله هذا المظهر - ويكون بمثابة هيولى للقصد الجديد. بيد أن السلوك الانفعالى لا يوجد فى نفس مستوى أنماط السلوك الأخرى، فهو ليس سلوكًا فعليًا . فهو لا يستهدف التأثير فى الموضوع من حيث هو كذلك مستعينًا بوسائل خاصة ، وإنما يسعى إلى أن يخلع

بذاته على الموضوع ، ودون تعديل فى بنيـانه الحقيقى ، كيـفيةً أخرى ، وجوداً أقل أو حضوراً أقل (أو وجوداً أكـثر إلخ) . وموجز القول أنه فى الانفعال يغير الجـسم الموجَّه بالشعور ، علاقاته بالعالم كيـما يغير العالم كيفياته . فإن كان الانفعال لعباً ، فهو لعب نؤمن به . وثمة مثال بسيط يعيننا على فهم هذا البنيان الإنفـعالى : أمد يدى لقطف عنقود من العنب فلا أستطيع الوصول إليه لأنه بعيد عن متناولى . فأهز كتفى وأنزل يدى وأتمتم : «إنه فج لا يؤكل» وأبتـعـد . كل هذه الحـركات والـعبـارات والأفعال ليست مدركة فى حد ذاتهـا . وإنما هى ملهاة صغيرة مثلها تحت العنقود لكى أخلع على الـعنب من خلالها خاصـية أنه «فج لا يؤكل» ، وهذه خاصـية تحل محل السلوك الذى لا أسـتطيع الأخذ به . فقـد ظهر العنب أول ما ظهر بوصـفه «شيئًا يتعين قطفه» . ولكن سـرعان ما تغدو هذه الكيفية الملحة أمراً لا يطاق لتـعذر تحقيق هذه الإمكانية . وهذا التوتر الذى لا يطاق يصبح بدوره باعثًا على إدراك كيفية جديدة فى العنب ، هى أنه «فج لا يؤكل» ، فـتـحل الصراع وتقـضى على التـوتر . إلا أنّى لا أستطيع أن أضـفى هذه الكيفـية على العنب إضـفاءً كيـميـائيًا ، فأنا لا أسـتطيع التأثيـر فى العنقـود بالطرق العادية . وإذ ذاك أدرك من خـلال سلوك التقزز هذه الحموضة المميزة للعنب الفج . فأخلع على العنب الصفة التى أتمناها خلعًا سحريًا . والملهاة ها هنا نصف صادقة ولكن متى أصبح

الموقف أشد إلحاحًا ، وتحقق السلوك السحرى بإخلاص ، فإن هذا هو الانفعال.

فلنأخذ مثلاً من الخوف السلبى . أرى وحشًا ضاريًا مقبلاً علىّ ، فتتخاذل ساقاى ، وتضعف نبضات قلبى ويشحب لونى فاسقط مغشيًا علىّ . ليس فى الظاهر أبعد عن التكيف من هذا السلوك الذى يخلفنى اعزل أمام الخطر . وهو مع ذلك سلوك الهرب . فالإغماء ههنا ملاذ . ولا يعتقدنّ امرؤ أنه ملاذ لى ، وإنى أقصد إلى نجاتى وإلى الكف عن رؤية الوحش الضارى . فأنا لم أخرج عن المجال اللاانعكاسى : ولكن نظراً لعجزى عن تجنب الخطر بالطرق العادية والروابط الحتمية فقد أنكرته. لقد أردت القضاء عليه . وكان الحاح الخطر محركًا لقصد شعورى غايته القضاء على الموضوع وقد حدد هذا القصد مسلكًا سحريًا . والواقع أنى قضيت على الخطر بقدر ما استطعت . وتلك هى حدود تأثيرى الفعلى فى العالم : فأنا أستطيع أن ألغيه بوصفه موضوعًا للشعور ولكنى لا أستطيع ذلك إلا بإلغاء الشعور ذاته[1] . ولا يعتقدن أحد أن السلوك الفسيولوجى للخوف السلبى هو اضطراب خالص . وإنما هو تحقيق فجائى للأحوال الجسمية التى تصحب عادةً الانتقال من اليقظة إلى النوم .

---

(١) أو بتعديله على الأقل ، فالإغماء انتقال إلى الشعور المميز للحلم ، أى إلى شعور ذى نشاط لا واقعى .

وقد يعتبر الهرب فى الخوف الإيجابى سلوكًا عقليًا ، ناتجًا عن تقدير شخص غير بعيد النظر ، يريد أن يجعل بينه وبين الخطر أكبر مسافة ممكنة . ولكن هذا رأى خاطئ ، بل إساءة لفهم هذا السلوك الذى لن يكون إذ ذاك سوى مجرد الحرص . فنحن لا نهرب للاحتماء من الخطر، بل نهرب لأننا عاجزون عن القضاء على أنفسنا فى الإغماء . فالهرب إغماء مصطنع ، هو سلوك سحرى ينحصر فى نفى موضوع الخطر بكل جسمنا ، وذلك عن طريق قلب بنيان القوى الموجِّهة فى المكان الذى نعيش فيه وخلق اتجاه ممكن من الناحية الأخرى خلقًا مباغتًا . فهو طريقة لنسيان موضوع الخطر وإنكاره . وهو نفس أسلوب الملاكمين المبتدئين وهم يقذفون بأنفسهم على الخصم مغمضى الأعين : فهم يريدون إلغاء وجود قبضاته ، هم يأبون رؤيتها ومن ثمة يلغون فاعليتها إلغاءً رمزيًا . وهكذا يتجلى لنا المعنى الحقيقى للخوف : فهو شعور يستهدف ، من خلال سلوك سحرى ، إنكارَ أحد موضوعات العالم الخارجى ، وهو يمضى فى ذلك إلى حد إفناء نفسه لإفناء الموضوع معه .

ويتميز الحزن السلبى ، كما هو معروف ، بأنه سلوك من غُلِب على أمره : فثمة ارتخاء عضلى وشحوب وبرودة فى الأطراف . وينزوى الحزين ، ويظل جالسًا بلا حراك ، وهو يقلل من تعرضه للعالم بقدر الإمكان . فهو يفضل العتمة على الضوء الساطع ، والصمت على الضجيج ، وعزلة غرفته على جماهير الأماكن العامة أو الشوارع . وكل

ذلك «حتى يبقى وحيداً مع آلامه» . وليس هذا بصحيح أبداً ؛ أجل من اللائق أن يبدو المرء فى صورة من يتعمق التأمل فى ما يحزنه - بيد أن الحالات التى يعكف فيها المرء على ألمه ، نادرة إلى حد ما . وإنما سبب هذا السلوك شيء آخر بالمرة : فبعد اختفاء شرط عادى من شروط فعلنا ، يتطلب العالم منا أن نعمل وأن نؤثر فيه بدون هذا الشرط . ولقد ظلت على حالها معظم الإمكانيات التى يزخر بها العالم (أشغال يتعين قضاؤها ، أناس يتعين رؤيتهم ، أفعال من مقتضيات الحياة اليومية يتعين إنجازها) . إلا أن التغير قد طرأ على وسائل تحقيقها ، على الطرق التى تعبر «مكاننا المسارى» . مثال ذلك : إذا علمت بإفلاسى ، فإنى لا أعود أملك نفس الوسائل (السيارة الخاصة إلخ) لتحقيق تلك الإمكانيات . ويتعين أن أستعيض عنها بوسائل جديدة (ركوب الحافلة إلخ) ، وهو ما لا أرتضيه أصلا . ويستهدف الحزن القضاء على الإلزام بالبحث عن هذه الطرق الجديدة ، وتغيير بنيان العالم عن طريق إحلال بنيان لا تفاضل فيه بالمرة محل التقويم الحاضر للعالم . وجملة القول أن الأمر ينحصر فى جعل العالم واقعًا محايداً من الناحية الوجدانية ، ونسقًا فى حالة من التوازن الوجدانى التام ، وتفريغ الأشياء من شحنتها الوجدانية المرتفعة ، وردها جميعًا إلى درجة الصفر الوجدانى ، ومن ثمة إدراكها بوصفها متعادلة متساوية تمامًا . وبعبارة أخرى ، نظراً لعجزنا وعزوفنا عما كنا ننتوى إنجازه من أفعال ، فإننا نسلك بحيث لا يعود العالم يطالبنا

بشيء. وفى سبيل ذلك لا يسعنا إلا أن نؤثر فى ذاتنا وأن «نقبع فى العتمة» ، والمقابل الموضوعى لهذا الموقف هو الكآبة : فالعالم كئيب ، أى أنه ذو تركيب غير متفاضل . وفى الآن نفسه نتخذ بالطبع موقفًا انطوائيًا ، «فنستغرق فى أنفسنا» - والمقابل الموضوعى لهذا الموقف هو الملاذ : فالكون بأسره كئيب ونحن نريد أن نحتمى من رتابته المخيفة اللامحدودة، لذلك نتخذ من أحد الأمكنة «ركنًا لنا». فيكون هذا الشىء المميز الوحيد ضمن الرتابة الشاملة للعالم : جزء من جدار وبعض من ظلام يحجب عنا اتساع العالم الكئيب .

وقد يتخذ الحزن الإيجابى صوراً شتى . ولكن من الممكن وصف الصورة التى يوردها «جانيه» ، (المريضة بالضعف النفسى التى تتشنج لأنها لا تريد الإدلاء باعترافها) بأنها صورة من صور الرفض . فنحن حيال سلوك سلبى قبل كل شىء ، يستهدف إنكار أن بعض المشاكل ملحة عاجلة ، والاستعاضة عنها بغيرها . فالمريضة تريد أن تثير الشفقة لدى «جانيه» . وهذا يعنى أنها تريد أن تستبدل بموقف الترقب البارد الذى يتخذه ، موقفًا تبدو فيه لهفة العطف . إنها تبغى ذلك وتستخدم جسمها فى تحقيقه . وفى نفس الآن ، فهى إذ تضع ذاتها فى حال يتعذر معها الاعتراف ، تجعل من الفعل المطلوب اداؤه شيئًا يعدو طاقتها . وها هى ذى قد استعصى عليها كل حديث ، وقد هزتها الدموع والشهقات . وهنا لا تُلغىَ إمكانية الكلام ، ويظل الاعتراف «واجب الإدلاء» . بيد أنه

قد خــرج عن طاقة المريضة ، فلم تعــد تستطيع أن تريد الإدلاء به ، بل تتمنى الإدلاء به يومًا ما . وهكذا تخلصت المريضة من الشعور المؤلم بأن الفعل كان فى مقدورها وأنها كانت حرة فى القيام به أو الانصراف عنه . فالأزمة الانـفعالية هنا هى إطراح للمـسئولية . وثمـة مبالغة سـحرية فى الصعاب التى يضــعها العالم . فــهو يحتفظ إذن ببنيانه المـتفاضل ولكنه يبدو ظالمًا معاديًا لأنه يطالبنا بما لا نستطيع أى بأكثر ما يستطيع الإنسان إعطاءه . ومن ثم فإن انفعال الحزن الإيجابى فى هذه الحالة هو ملهاة عجز سحرية ، والمـريضة تشبه أولئك الخـدم الذين أدخلوا اللصوص إلى بيت سيدهم ثم طلبوا إليهم شــد وثاقهم كى يرى الناس عجزهم عن منع هذه السرقــة . إلا أن المريض هنا هو الذى يشد وثاق نفسه بآلاف من الـقيود الخفيــة . ورب قائل بأن شعور الحـرية المؤلم الذى يريد المريض التخلص منه ذو طبيعة انـعكاسية لا محالة . ونحن لا نعتقــد ذلك ألبتة ، ويكفى أن يشاهد المرء ذاته ليتـحقق مما نقول : فالموضوع هو الذى يظهر بــاعتبار أنه يتعين أن يخلق خلقًا حرًا ، والاعتراف يظهر فى الآن نفسه باعتبار أنه من الممكن ومن الواجب الإدلاء به . وثمة بالطبع وظائف أخــرى وصور أخرى للحــزن الإيجابى . ولن نقف طويلاً عند الغـضب فقد أطنبنا فــيه الحديث ، فــضلاً عن أن دوره الوظيفــى ربما كان أوضح من دور أى من الانفعــالات الأخرى . ولكن مــا القــول فى الفــرح ؟ هل ينطبق عليــه وصفنا؟ إن ذلك لا يبدو لأول وهلة ، لأن الفــرحان ليس فى حاجة إلى

وقاية نفسه من تغير فيــه تقليل من شأنه ، ليس فى حاجة إلى وقاية نفسه من خطر يترقبــه . ولكن يجب بادئ ذى بدء التمييز بين الفــرح بوصفه عاطفة ، وهو اتــزان وحال من التكيف ، والفرح بوصفــه انفعالاً . وإذا أمعنا النظر فى هذا النوع الأخــير من الفرح وجدناه يتمــيز بشىء من نفاد الصبر . ونقــصد بذلك أن الفرحان يسلك سلوك من نفد صــبره فهو لا يستــقر فى مكــان ، ويفكر فى آلاف المشاريع ، ولا يكاد يبــدأ فى سلوك حــتى يقلع عنه إلخ . ذلك لأن ظــهور مــوضــوع رغــبــاته هو الذى أثار فرحته. فقد نمى إليه أنه قد ربح مبلغًا كبيراً من المال ، أو أنه سيلقى عما قــريب حبــيــبًا لم يره منذ أمد طويــل . ومع أن هذا الموضوع «وشــيك الظهور» إلا أنه لم يحــضر بعد ولم يصــبح بعد فى حوزته . فهناك فترة زمنية تفصله عــن الموضوع . وحتى إذا حضر الموضــوع ، وحتى إذا ظهر الصديق الذى كنا نتــمناه على رصــيف المحطة ، فــإنه يظل موضــوعًا لا يتكشف إلا بالتدريج، وسرعان ما تخمد اللذة التى شعرنا بها عند رؤيته: فلن نتمكن ألبــتة من الاحتفــاظ به أمامنا باعتبــاره ملكًا مطلقًا لنا وإدراكه دفعــة واحدة، باعــتبــاره كُلاً (كذلك لن نتــمكن ألبتــة من إدراك ثروتنا الجديدة دفعــة واحدة باعتبارها كُلاً آنيًا. فــهى تتكشف لنا من خلال آلاف التفــاصيل وعلى «أوجه شــتى» إن صح التعبيــر. فالفرح سلوك ســحرى يرمى بفعل السحر إلى تملك الموضوع المنشــود بوصفه كلا آنيًا. ويصحب هذا السلوك يقين بأن التــملك سوف يــتم عــاجلا أو آجلا، ولكنــه يسعى إلى استباق هـــذا التملك. وأفعال الفرح المتنوعة، شــأنها فى ذلك شأن

زيادة التوتر العضلى وتمدد الأوعية الدموية الخفيف ، يحركها ويتعداها قصد شعورى يستهدف من خلالها العالم . والعالم يبدو يسيراً، ويبدو موضوع رغباتنا قريبًا سهل المنال . وكل إشارة هى تأييد متزايد . والرقص والغناء من فرط الفرح سلوكان متقاربان من الناحية الرمزية ، سلوكان سحريان ، من خلالهما يمتلك الشخصُ الموضوعَ دفعة واحدة امتلاكًا زمزيًا ، بينما لا يمكن فى الواقع تملكه إلا بالمسلك الحذر الصعب. وهكذا قد يعمد رجل إلى الرقص والغناء بعد أن صارحته امرأة بحبها إياه. وهو فى فعله هذا يتحول عن المسلك الحذر العسير الذى يتعين عليه الأخذ به لكى يكون جديراً بهذا الحب ولكى يعمل على إنمائه ، أى لكى يتم له تحقيقه ببطء ومن خلال آلاف من دقائق التفاصيل (الابتسامات واللفتات اللطيفة . . إلخ) بل أنه يتحول حتى عن المرأة التى هى فى واقعها الحى ، القطب الذى تتجه إليه كل هذه العمليات السلوكية الرقيقة. فهو يمنح نفسه مهلة ، فهو سيقوم بهذه الأفعال فيما بعد . أما الآن فهو يمتلك الموضوع بأفعال السحر وما الرقص إلا محاكاة لتملكه .

إلا أننا لا يمكن أن نقنع بهذه الملاحظات القليلة . فقد سمحت لنا بتحديد الدور الوظيفى للانفعال ، ولكننا لم نعرف بعد الكثير عن طبيعته.

وينبغى علينا أن نلاحظ أن الأمثلة القليلة التى أوردناها لا تستوعب متنوع الانفعالات . فثمة صور كثيرة أخرى من الخوف وصور كثيرة

أخرى من الحزن . وكل ما نؤكده هو أنها جميعها ترمى إلى تكوين عالم سحرى باستخدام جسمنا كوسيلة سحرية . والمشكلة فى كل حالة مختلفة، وأنماط السلوك مختلفة كذلك . ويجب معرفة كل موقف معين وتحليله إلى عناصره ، كيما ندرك معنى هذه الأنماط وغائيتها . وعلى وجه العموم ليس ثمة أربعة أنماط كبرى من الانفعالات ، بل أنها أكثر من ذلك بكثير ، والقيام بتصنيفها عمل ناقع خصب . مثال ذلك ، إذا تحول خوف الشخص المحجول فجأة إلى غضب (وهو تغيُّر فى السلوك سببه تغيُّر فى الموقف) فليس هذا الغضب غضبًا من النمط العادى وإنما هو خوف متعدٍّ وليس معنى هذا أن من الممكن إرجاعه إلى الخوف على نحو من الأنحاء ، وإنما معناه أنه يستبقى الخوف السابق ويدمجه فى بنيانه الخاص. غير أننا لن نفهم المشاعر الانفعالية فى تنوعها اللانهائى ما لم نقتنع بأن للانفعال بنيانًا وظيفيًا . ومن جهة أخرى يحسن إبراز واقعة رئيسية : هى أن أفعال السلوك الخالصة البسيطة ليست هى الانفعال ، لا ولا الشعور الخالص البسيط بهذه الأفعال . ولو كان ذلك كذلك لتبدى الطابع الغائى للانفعال فى وضوح أكبر ، ولتمكن الشعور من التحرر منه فى يسر . ومن جهة أخرى ، فهناك انفعالات كاذبة ليست إلا أفعالا سلوكية . فإن قدمت إلى هدية لا ترضينى كل الرضا ، فقد أظهر فرحًا شديدًا وأصفق وأقفز وأرقص وهى مع ذلك ملهاة تخدعنى بعض الخداع بحيث يصبح من الباطل القول بأنى لست فرحان . ومع ذلك فإن فرحى ليس حقيقيًا فإنى

أتركه جانبًا وأطرحه بعيدًا عنى بمجرد أن يرحل زائرى . وهو بالذات ما نصطلح على تسميته فرحًا كاذبًا ، مع ملاحظة أن الكذب ليس صفة منطقية لبعض القضايا وإنما هو كيفية وجودية . وعلى نفس المنوال ، فقد أشهر بزائف الخوف وزائف الحزن . إلا أن هذه الأحوال الزائفة تتميز عن أحوال الممثل . فالممثل يحاكى الفرح والحزن ولكنه لا يكون فرحان أو حزينًا لأن هذه الصفات تنصب على عالم خيالى . فهو يحاكى السلوك دون أن يسلك . وفى مختلف حالات الانفعال الكاذب التى سردتها لا تستند الأفعال السلوكية إلى شىء على الإطلاق ، وإنما توجد وحدها وتكون إرادية . بيد أن الموقف ذاته موقف حقيقى ، ونحن نتصوره باعتباره يتطلب هذه الأفعال السلوكية . وهكذا فنحن نسلك مسلكًا سحريًا ونرمى من خلال هذه الأفعال إلى إدراك كيفيات معينة فى موضوعات حقيقية . غير أن هذه الكيفيات كيفيات كاذبة .

وليس معنى هذا أنها خيالية وأنها سوف تتلاشى حتما فيما بعد . إن كذبها يصدر عن ضعف ما هوى يظهر باعتباره قسرًا . فلطف الشىء المهدَى إلىّ يوجد بوصفه مطلبًا أكثر من وجوده بوصفه شيئًا واقعيًا . إن ثمة واقعًا طفيليًا يعتمد فى وجوده على غيره وأحس به جيدًا ، وأعرف أنى أجعله يظهر فى الموضوع بلون من السحر : وما أن أوقف أفعالى السحرية حتى يختفى لتوه .

أما الانفعال الحقيقى فغير ذلك تمامًا . فهو مقترن بالاعتقاد .

والكيفيات التى نقصد إليها فى الموضوعات تدرك بوصفها كيفيات حقيقية. وما معنى هذا بالضبط ؟ معناه بالتقريب أن الانفعال شىء نعانيه معاناة سلبية . والمرء لا يستطيع التخلص منه وفق هواه . فهو يستنفد ذاته دون أن نستطيع إيقافه . ثم أن الأفعال السلوكية وحدها لا تعكس على الموضوع إلا ظلاً من الكيفية الانفعالية التى نخلعها عليه . فالهرب الذى لا يعدو أن يكون ركضًا لا يكفى لجعل الموضوع مخيفًا . أو هو بالأحرى يخلع عليه الكيفية الشكلية للمخيف دون أن يخلع عليه المادة التى تتحقق فيها هذه الكيفية . ولكى ندرك المخيف حق الإدراك لا يتعين فقط أن نحاكيه ، وإنما يتعين أن نكون مأخوذين بانفعالنا ، غارقين فيه ، ويتعين أن يمتلئ الإطار الشكلى للسلوك بشىء معتم ثقيل يكون بمثابة مادة له . وهنا نفهم دور الوظائف الفسيولوجية البحتة : فهى التى تمثل الجانب الجدى من الانفعال ، فهى ظواهر للاعتقاد . ولا ريب فى أنه لا ينبغى الفصل بين هذه الظواهر وبين السلوك : فثمة فى المحل الأول تشابه بينهما. فهبوط التوتر العضلى فى الخوف الجدى أو الحزن وانقباض الأوعية الدموية واضطرابات التنفس لها معنى رمزى يتفق مع سلوك يرمى إلى نفى وجود العالم أو إلى تفريغه من شحنته الوجدانية عن طريق نفى وجود ذاته . ثم إنه من المستحيل أن نضع حدًا فاصلاً دقيقًا بين الاضطرابات الخالصة والأفعال السلوكية . وأخيراً فإن هذه الاضطرابات تؤلف مع السلوك صورة تركيبية كلية ، فهى لا يمكن دراستها لذاتها . وخطأ النظرية السطحية هو أنها نظرت فى هذه الاضطرابات على حدة .

ولكنها مع ذلك لا يمكن ردها إلى السلوك إذ يمكن لـلمرء أن يتوقف عن الهرب لا عن الارتعـاش . وفى استطاعتى ، بعد جهـد عنيف ، أن أقوم عن مقـعدى وأن أحول فـكرى عن الكارثة التى أرزح تحتـها وأعكف عن العمل : ولكن يدى تظلان باردتين . ينبـغى إذن أن نعتبر أن الانـفعال ليس مجـرد دور نؤديه . فهو ليس سلوكًا خـالصًا ، بل هو سلوك جسم موجود فى حال معينة ، والحال وحدها لا تكفى لإثارة السلوك ، والسلوك ملهاة إن لـم يكن مـصحوبًا بهذه الحـال المعينة . وإنما يظهر الانفـعال فى جسم مـضطرب يتخذ مـسلكًا معينًا . وقد يـبقى الاضطراب بعد اختـفاء السلوك ، ولكن السلوك هو صورة الاضطراب ومعنـاه . ومن جهة أخرى فبدون هذا الاضطراب يكون السلوك معـنى خالصًا وقالبًا وجدانيًا . فنحن هنا حيال صورة تركيبيـة : لكى يعتقد المرء بالسلوك السحرى ، يجب أن يكون مضطربًا .

ولكى نفهم العملية الانفعالية ابتداء من الشعور فهمًا واضحًا ، يجب أن نتذكر هذا الطابع المزدوج للجسم : وهو أن الجـسم من ناحية موضوع موجود فى العالـم ، وهو من ناحية أخـرى المُعاش المباشر للشعور . ومن ثمة نستطيع أن ندرك جوهر الأمر: فالانفعال ظاهرة من ظواهر الاعتقاد ، فالشعور لا يقتصر على إسـقاط المعانى الوجدانية على العالم المحيط به ، بل إنه يحيا العالم الجـديد الذى يكوِّنه . وهو يحيـاه على نحو مبـاشر ويهتم به ويتقبل الكيفيات التى بـدأت تظهرها الأفعال السلوكية . ومعنى

هذا إنه حين تفسد كافة الطرق ، يتهاوى الشعور فى العالم السحرى للانفعال ، وهو يتهاوى فيه بكليته ويتدهور : فيصبح شعوراً جديداً إزاء العالم الجديد الذى يكونه مستعينًا بأكثر الأشياء ألفة لديه ، مستعينًا بالقرب المطلق لوجهة نظره فى العالم بالنسبة للشعور . والشعور إذ ينفعل يشبه إلى حد كبير الشعور إذ ينام . فكلاهما يلقى بذاته فى عالم جديد ويغير جسمه بوصفه كلا تركيبيًا . بحيث يستطيع أن يحيا من خلاله هذا العالم الجديد وأن يدركه . أى أن الشعور يستبدل بالجسم جسمًا آخر ، أو بعبارة أفضل أن الجسم ، من حيث هو وجهة نظر الشعور إلى العالم ، يضع نفسه فى مستوى أفعال السلوك . وهذا هو السبب فى أن المظاهر الفسيولوجية هى فى أساسها اضطرابات عادية مشتركة : فهى تشبه اضطرابات الحمى وخناق الصدر والهياج المصطنع إلخ . وهى لا تمثل إلا اضطراب الجسم من حيث هو كذلك اضطرابًا كليًا آليًا (والسلوك وحده هو الذى يقرر ما إذا كان الانقلاب «نقصانًا حيويًا» أو «زيادة») . فهو فى حد ذاته لا شىء بالمرة ، وهو لا يمثل إلا إظلام وجهة نظر الشعور إلى الأشياء ، باعتبار أن الشعور هو الذى يحقق هذا الإظلام ويحياه على نحو تلقائى . ويجب بالطبع أن نفهم هذا الإظلام بوصفه ظاهرة تركيبية لا تتجزأ . ولكن لما كان الجسم من ناحية أخرى شيئًا ضمن الأشياء ، فإن التحليل العلمى يستطيع أن يميز اضطرابات قاصرة على عضو أو آخر ، محلها الجسم البيولوجى ، أى الجسم الذى هو شىء.

وهكذا فإن الانفعال فى أصله تدهور تلقائى للشعور إزاء العالم ، تدهور يحياه الشعور . فما يعجز الشعور عن تحمله بطريقة معينة ، يحاول أن يدركه بطريقة أخرى ، بالنوم وبالاقتراب من مشاعر النوم والحلم والهستيريا . ولا يعدو انقلاب الجسم أن يكون هو الاعتقاد كما يحياه الشعور ومن حيث أننا ننظر إليه من الخارج . ولكن ينبغى أن نلاحظ :

أولاً : أن الشعور إذ يتدهور فراراً من ضغط العالم لا يشعر بذاته مباشرة ، وإنما يشعر مباشرة بتدهور العالم وهو ينتقل إلى المستوى السحرى . ويبقى إنه شعور غير مباشر بذاته . وبهذا القدر ، وبهذا القدر وحده ، يمكن وصف الانفعال بأنه غير مخلص . فليس غريبًا أن لم تكن غائية الانفعال شعورية فى صميم الانفعال . ومع ذلك فليست هذه الغائية لا شعورية ، إنها تستنفد نفسها فى تكوين الموضوع .

ثانيًا : أن الشعوريقع فى شراك نفسه . فهو أسير اعتقاده لأنه يحيا المظهر الجديد للعالم وهو يعتقد به كما هو الحال فى الحلم والهستيريا . والشعور أسير فى الانفعال ولكن هذا لا يعنى أن موجودًا خارجًا عنه قد شد وثاقه . وإنما هو أسير ذاته بمعنى أنه لا يسيطر على هذا الاعتقاد الذى يجهد أن يحياه ، وذلك لأنه يحياه ويستغرق فى حياته إياه . وينبغى ألا نتصور أن الشعور تلقائى بمعنى أنه دائمًا حر فى إنكاره شىء فى الآن الذى يقرره فيه . إن مثل هذه التلقائية متناقضة . فالشعور فى ماهيته يتعدى ذاته ، فمن المستحيل عليه إذن أن ينعزل فى ذاته لكى يشك فى

أنه خارج ذاتـه فى الموضوع . فـالشعور يعـرف ذاته من خلال الـعالم . والشك بطبـيعـته لا يمكن أن يكون إلا تكوينًا لكـيفيـة وجودية جـديدة للموضوع هى المشكوك فيه ، أو فعلا انعكاسيًا اختزاليًا وهو المميز لشعور جديد مـوجه إلى الشعور الذى يقـرر وجود الموضوع . فكما أن الشـعور يحيا العالم السحرى الذى قذف بنفسه فيه ، فهو يميل إلى الإبقاء على هذا العالم الذى هو أسير فيه : فـالانفعال يميل إلى الإبقاء على ذاته . وبهذا المعنى يمكن وصفـه بأنه يعانى معـاناة سلبية ، فالشـعور ينفعل بانفـعاله ويزيد من حـدته . وكلما أمـعن المرء فى الهـرب زاد خوفـه . فالعـالم السحرى تظهر ملامحـه وتتكامل صورته ، ثم يضيق الخناق على الشعور ويضغط عليـه . والشعور لا يستطيع أن يريد الخـلاص منه ، بل يستطيع السعى إلى الفـرار من الموضوع الســحرى ، ولكن الفرار منه يـخلع عليه واقعًا سحريًا أشد وطأة . بل أن طابع الأسر هذا لا يدركه الشعور فى ذاته وإنما يدركه فى الموضوعات . فالموضوعـات هى التى تأسر الشعور وتقيده وتستحوذ عليـه . والتحرر لا يأتى إلا بتطهير الشعور ورجـوعه على نفسه أو باختفاء الموقف المثير للانفعال اختفاء كليًا .

إلا أن الانفعال من حيث هو كذلك لا يستغرق فيه الشعور على هذا النحو إذا لم يدرك فى الموضوع إلا المقابل الدقيق لأفـعال الشعور القصدية (مثـال ذلك . هذا الرجل مـخيف فى هذه السـاعة بالذات ، وفى هذا

الضوء، وفى ظروف معينة) . إن ما يكوِّن الانفعال لهو أنه يدرك فى الموضوع شيئًا يعدوه إلى ما لا نهاية . والواقع أن للانفعال عالمه . وتشترك الانفعالات جميعًا فى أنها تظهر نفس العالم باعتباره عالمًا قاسيًا أو مخيفًا أو حزينًا أو فرحًا إلخ ، ولكنه عالم ، فيه تكون علاقة الشعور بالأشياء دائمًا علاقة سحرية فحسب . ويجب الحديث عن عالم الانفعال كما نتحدث عن عالم الحلم أو عوالم الجنون . والعالم معناه تركيبات فردية مترابطة لها كيفياتها . غير أن كل كيفية لا تُخلَع على الموضوع إلا بالانتقال إلى اللانهاية . مثال ذلك ، أن هذا اللون الرمادى هو وحدة ما لا يتناهى من الظلال الحقيقية والممكنة ، بعضها رمادى مخضر ، وبعضها رمادى فى ضوء معين وبعضها أسود إلخ . وبالمثل فإن الكيفيات التى يضفيها الانفعال على الموضوع وعلى العالم فإنه يضفيها عليها إلى الأبد. أجل إنى إذا أدركت فجأة موضوعًا بوصفه مخيفًا فإنى لا أقرر صراحة إنه سيبقى مخيفًا إلى الأبد . ولكن مجرد تقرير كيفية المخيف بوصفها كيفية مقوِّمة للموضوع يتضمن فى ذاته انتقالا إلى اللانهاية . فالآن قد أصبح المخيف فى الشىء نفسه ، فى صميم الشىء ، لقد أصبح نسيجه الوجدانى وصار مقوِّمًا له . وهكذا تتجلى لنا من خلال الانفعال كيفية من كيفيات الموضوع الباهظة القاطعة . وذلك هو ما يتعدى انفعالنا ويبقى عليه . فليس المخيف حالة الشىء الراهنة فحسب ، بل إنه ليتهدد المستقبل ، فهو ينبسط على المستقبل ويظلمه ، ويصير تكشفًا لمعنى العالم. و«المخيف» هو

أن المخيف كيفية مقـوِّمة وأن المخيف موجود فى العالم . وهكذا ففى كل انفعال حشد من أفعال الترقب[1] الوجدانية التى تتجـه إلى المستقبل لكى تصبغه بصـبغة انفعالية . ونحن فى الانفـعال نحيا كيفيـة تتغلغل فينا ، كيفية نتحملها على مضض ، وهى تغمرنا من كل ناحية. وفى نفس الآن يخرج الانفـعال عن ذاته ويتـعدى ذاته ولا يعود حـدثًا عاديًا فى حـياتنا اليومية ، بل حدسًا للمطلق .

وهذا هو ما يفـسر الانفعالات الرقـيقة . ففى هذه الانفـعالات ندرك كيفية موضوعية فى الشىء ، ويكون ذلك من خلال سلوك لا يكاد يبين، ومن خلال ذبذبة خفـيفة فى حالتنا الجـسمية . إن الانفعـال الرقيق ليس إدراكًا لموضوع خـفيف التكـدير أو لشىء نعجب به إعـجابًا مـحدودًا أو لشىء كئـيب كآبة سطحـية ، وإنما هو استشفاف لشىء مكدر أو جـدير بالإعجاب أو كـئيب ، يدرك من خلال نقاب . فهـو حدس غامض وهو يظهر لنفســه على النحو . ولكن الموضوع ما زال قـائمًا وهو ينتظر ، وقد ينقشع النقاب غدًا فنراه فى وضح النهار . وهكذا قد يكون انفعالنا ضئيلاً نسبيًا إذا قـصدنا بالانفعال اضطرابات الجسم أو انـفعال السلوك . ونحن مع ذلك ندرك حياتنا كلهـا ، من خلال انقباض خفيف ، بوصفـها حياة مشئومـة . ونحن نعلم أن الشؤم شامل وأنه عميق ولكننا اليوم نسـتشفه ـسب . وفى هذه الحالة ، كما فى حـالات أخرى مشابهـة له ، يظهر

---

(1) [protensions انظر ثبت المصطلحات . المترجمان] .

الانفعال أقوى بكثير مما هو عليه فعلا . لأننا على أى حال ، ندرك من خلاله الشؤم العميق . وتختلف بالطبع الانفعالات الرقيقة عن الانفعالات الواهنة اختلافًا أساسيًا . فهذه الأخيرة إنما ندركها من خلال طابع وجدانى خفيف للموضوع . فالقصد الشعورى هو الذى يميز الانفعال الرقيق عن الانفعال الواهن ، لأن السلوك والحالة الجسمية قد يتطابقان فى كلتا الحالتين . غير أن هذا القصد الشعورى بدوره ينبعث عن الموقف .

على أن هذه النظرية فى الانفعال لا تفسر بعض الاستجابات المفاجئة بالفزع أو بالإعجاب ، التى تتملكنا أحيانًا إزاء موضوعات تظهر على حين غرة . فمثلاً إذا ظهر بغتة وجه متجهم والتصق بزجاج النافذة ، أحس بالفزع يستبد بى . ومن الواضح هنا أن السلوك الذى يتعين الأخذ به غير موجود . والانفعال يلوح خلواً من كل غائية . وبوجه عام فإن إدراك المخيف فى المواقف أو على الوجوه ينطوى على عنصر مباشر ولا يكون مصحوبًا عادة بالفرار أو الإغماء ، بل ولا بالشروع فى الفرار . ومع ذلك فإذا فكرنا فى الأمر مليًا وجدنا أنها ظواهر فريدة فى نوعها وإن كان من الممكن تفسيرها بما يتفق والأفكار التى نعرضها . فقد رأينا أن الشعور يتدهور فى الانفعال ويغير بغتةً العالم المحتوم الذى نعيش فيه إلى عالم سحرى . ولكن هناك حالة يكون فيها العكس صحيحًا : فالعالم ذاته يتكشف للشعور أحيانًا بوصفه عالمًا سحريًا وقد كنا نتوقعه محتومًا. وينبغى ألا نعتقد أن «السحرى» كيفية عابرة نضفيها على العالم وفقًا

لأهوائنا . فثـمة بنيان وجـودى للعالم وهذا البنيان سـحرى . ولسنا نبغ التوسع فى هذا الموضوع لأنا نرجئ بحثه إلى موضع آخر . ولكنا نستطيع أن نلاحظ منذ الآن أن مقولة «السحرى» تسيطر على الروابط النفسية بين الناس فى المجتمع ، كما تسيطر خاصـة على إدراكنا للغير . والسحر كما يقـول «آلان» هو «الروح الذى يتنقل بين الأشـياء» ، أى أنه تركـيب لا عقلى من التلقائية والسلبية . فهو نشاط جامد وشعور أصبح سلبيًا . وفى هذه الصورة يبدو لنـا الغير ، ولا يكون ذلك بسبب موقـفنا منه أو ناجمًا عن أهوائنا وإنما الأمر كذلك بناء على ضرورة الماهيـة . فالشعور لا يمكن أن يصبح موضـوعًا مفارقًا إلا بقبوله التغـير الذى تضفيه عليـه السلبية . وهكذا فإن مـعنى الوجه هو كونه شعورًا فى المحل الأول (وليس عـلامة على الشعور) ، ولكنه شعور فاسد متدهور هو عين السلبية . وسوف نعود فيما بـعد إلى هذه الملاحظات ونأمل أن نثبت صحتهـا . وهكذا فالإنسان دائمًا ساحر بالنسـبة للإنسان ، والعالم الاجتمـاعى عالم سحرى أولاً .

وليس من الممـتنع النظر إلى العالم الاجـتماعى نظرة حـتمـية ، ولا بناء الأبنية العقلية فـوق هذا العالم السحرى . ولكنها أبنية زائلة غـير راسخة تتداعى عندما يطغى المظهر السحرى للوجوه والإيماءات والمواقف الإنسانية.

وماذا يحـدث إذن عندما تتقـوض الأبنية التى شادها العـقل بعناء وكد ، ويلقى الإنسان نفســه فجأة وقد غاص ثانية فى عالم الـسحر الأصيل ؟ من اليسـير أن نخمن ما يحـدث . فالشعور يدرك السـحرى بوصفه سـحريًا يحياه بقوة من حيث هو كذلك . ومقولات «المريب» و «المقلق» إلخ إنما

تدل على السحرى كما يحياه الشعور وكما يدفع الشعور إلى أن يحياه . والانتقال المباغت من تفهم العالم تفهمًا عقليًا إلى إدراكه باعتباره عالمًا سحريًا ،. إذا كان الباعث عليه هو الموضوع نفسه وصحبه عنصر بغيض ، فهو الفزع ، وإذا صحبه عنصر سار فهو الإعجاب (ونحن نورد هذين المثلين وهناك حالات أخرى كثيرة بطبيعة الحال) . ومن ثم هناك نوعان من الانفعال تبعًا لما إذا كنا نحن الذين نؤلف العنصر السحرى فى العالم للاستعاضة به عن نشاط حتمى لا يمكن تحقيقه . أو إذا كان العالم نفسه هو الذى يتكشف بغتةً من حولنا بوصفه سحريًا . ففى الفزع مثلا ، ندرك فجأة انقلاب الحواجز الحتمية : فنحن لا ننظر بادئ ذى بدء إلى هذا الوجه الظاهر خلف زجاج النافذة بوصفه وجه رجل يتعين عليه أن يدفع الباب ويسير ثلاثين خطوة حتى يصل إلينا . وإنما على الضد يبدو الوجه – فى سلبيته – وكأنه يؤثر فينا عن بعد . فهو يجاوز زجاج النافذة وهو على صلة مباشرة بجسمنا ونحن نحيا معناه ونعانيه معاناة سلبية ، وهذا المعنى نكونه نحن بجسمنا ولكنه فى الآن نفسه يفرض نفسه ويلغى المسافة ويدخل فينا . والشعور إذ يغوص فى هذا العالم السحرى يجر معه الجسم من حيث أن الجسم هو الاعتقاد . فالشعور يعتقد بهذا العالم . ولا تصبح الأفعال السلوكية التى تضفى على الانفعال معناه أفعالنا نحن : بل إن تعبير وجه الآخر وحركات جسمه هى التى تؤلف كلا تركيبيًا مع اضطراب جسمنا . وها نحن إزاء نفس العناصر ونفس الأبنية التى سبق

لنا وصفها ، مع هذا الفارق وهو أن السحر الأول ومعنى الانفعال مصدرها العالم لا نحن أنفسنا . وبديهى أن السحر باعتباره كيفية حقيقية للعالم لا يقتصر على المجال الإنسانى ، بل إنه يشمل الأشياء بقدر ما تظهر لنا فى هيئة إنسانية (المعنى المقلق فى منظر خلوى ، أو فى بعض الأشياء ، أو فى غرفة تحمل آثار زائر مجهول) أو بقدر ما تحمل الطابع النفسى . وبديهى أيضًا أن هذا التمييز بين نمطين كبيرين من الانفعال ليس قاطعًا على الإطلاق : فكثيرًا ما توجه أمزجة من النمطين وغالبية الانفعالات ليست خالصة . وهكذا فإن الشعور إذ يحقق - بغائيته التلقائية - مظهرًا سحريًا للعالم ، قد يتيح لنفسه فرصة الظهور باعتباره كيفية سحرية حقيقية . وبالمثل إذ تبدى العالم سحريًا على نحو ما ، فقد يحدث أن يحدد الشعور تكوين هذا السحر ويكمله وينشره فى كل مكان أو على الضد يلم أطرافه ويركزه فى موضوع واحد .

وعلى أية حال ينبغى أن نلاحظ أن الانفعال ليس تعديلاً عرضيًا لشخص مستغرق فى عالم ثابت لا يتغير . ومن السهل أن نرى أن كل إدراك انفعالى للموضوع باعتباره مخيفًا أو مثيرًا أو محزنًا إلخ ، لا يمكن أن يتم إلا على أساس من تعديل شامل للعالم . فلكى يظهر هذا الموضوع باعتباره مخيفًا ، يتعين على الموضوع أن يتحقق أمام الشعور باعتباره حضورًا مباشرًا سحريًا . مثال ذلك ، ينبغى أن أحيا هذا الوجه

الظاهر خلف النافذة على بعد عشرة أمتار منى ، بوصفه حاضراً فى تهديده على نحو مباشر بالنسبة إلىّ . ولكن هذا مستحيل بدون فعل شعورى يقضى على كافة أبنية العالم التى تستبعد الجانب السحرى وتعطى الواقعة قيمتها الحقيقية . فمثلا ينبغى القضاء على النافذة بوصفها «موضوعًا يتعين كسره أولاً» والأمتار العشرة بوصفها «مسافة يتعين عبورها أولاً» . وليس معنى ذلك أن الشعور فى فزعه يقرب الوجه بمعنى أنه يختصر المسافة بين هذا الوجه وجسمى . فاختصار المسافة هو الاعتراف بالمسافة . وبالمثل فقد يفكر الشخص الخائف فى النافذة على الوجه التالى: «من السهل كسرها ، من الممكن فتحها من الخارج» وهو فى ذلك يحاول تبرير خوفه تبريراً عقليًا . والواقع أن الشعور يدرك النافذة والمسافة «فى نفس الوقت» الذى يدرك فيه الوجه الماثل خلف النافذة . ولكنه إذ يدركهما يرفع عنهما سمة الأدوات الضرورية ، ويدركهما فى صورة أخرى. فالمسافة لا تدرك بوصفها مسافة لأنها لم تعد تدرك باعتبارها «ما يتعين عبوره أولاً» إنما تدرَك باعتبارها الأرضية الموحدة للمخيف . والنافذة لا تدرك بوصفها «ما يتعين فتحه أولاً» بل تدرك بوصفها إطاراً للوجه المخيف . وبوجه عام ، تنتظم من حولى مناطق يبدأ منها المخيف . ذلك لأن المخيف ليس ممكنًا فى عالم الأدوات الحتمى . ولا يمكن أن يظهر المخيف إلا فى عالم موجوداته سحرية بالطبع ، ووسائل الوقاية منها

سحرية كذلك . وهذا ما يتجلى بوضوح فى عالم الحلم حيث لا تكو الأبواب والأقفال والجدران والأسلحة وسائل لدرء أخطار اللص أو الوحش الضارى لأنها تكون مدركة من خلال فعل الفزع الموحد . ولما كان الفعل الذى يلغى فاعليتها هو نفسه الذى يخلقها ، فإنا نرى القتلة يخترقون هذه الجدران وهذه الأبواب بينما نضغط عبثًا على زناد مسدسنا ولا تنطلق الرصاصة . وبعبارة موجزة إن إدراك موضوع ما بوصفه مخيفًا هو إدراكه على أرضية يؤلفها عالم سبق أن تكشف باعتباره مخيفًا .

وهكذا يمكن للشعور «أن يكون فى العالم» على نحوين مختلفين . فقد يظهر له العالم بوصفه مركبًا منظمًا من الأدوات ، بحيث إن أردنا إحداث أثر معين فلابد من التأثير فى عناصر معينة من المركب . وفى هذه الحالة ، تحيل كل أداة إلى سائر الأدوات وإلى جماع الأدوات ، فلا يمكن أن ندخل فى هذا العالم فعلاً مطلقًا أو تغييرًا جذريًا إدخالاً مباشرًا. إذ يتعين تعديل أداة معينة ويكون ذلك بواسطة أداة أخرى تحيل إلى أدوات أخرى وهكذا إلى ما لا نهاية . ولكن قد يظهر العالم أيضًا بوصفه كلا لا علاقة له بالأدوات ، أى باعتباره قابلاً للتعديل بدون وسيط وبالجملة . وفى هذه الحالة يكون لأصناف الأشياء فى العالم تأثير مباشر فى الشعور (فمثلاً هذا الوجه الذى يخيفنا من خلال الزجاج ، ؤثر فينا بدون أدوات ، فلا حاجة لفتح النافذة وللقفز إلى الغرفة والسير

على الأرض) . وفى مقابل ذلك يهدف الشعور إلى مواجهة هذه الأخطار أو تعديل هذه الموضوعات التى ارتفعت عنها المسافة ولم تعُد أدوات ، ويكون ذلك بإحداث تعديلات مطلقة شاملة فى العالم . ولا يحتوى هذا المظهر من مظاهر العالم على أى تناقض ، فنحن هنا حيال العالم السحرى ، ونحن نطلق اسم الانفعال على سقوط الشعور فى عالم السحر سقوطًا مباغتًا . أو بعبارة أفضل يوجد الانفعال حين يختفى عالم الأدوات فجأة ويظهر محله عالم السحر . فليس ينبغى إذن أن نرى فى الانفعال خللاً عابرًا فى الجسم أو فى النفس ، خللا يثير الاضطراب فى الحياة النفسية من خارج . بل على الضد من ذلك فإن رجوع الشعور إلى الموقف السحرى هو أحد المواقف الكبرى التى لا تنفصل عن الشعور ، وهو موقف يكون مصحوبًا بظهور العالم المتضايف معه ، عالم السحر . فليس الانفعال عرضًا بل هو نحو وجودى للشعور . هو إحد الطرق التى يفهم بها «وجوده فى العالم» (والفهم هنا بالمعنى الهيدجيرى "Verstehen").

ومن الممكن دائمًا أن يتجه إلى الانفعال شعور انعكاسى . وفى هذه الحالة يبدو الانفعال بوصفه بنيانًا للشعور . فهو ليس كيفية خالصة ممتنعة على الوصف كالأحمر القرميدى أو الانطباع الخالص للألم - كما يتعين أن يكون وفقًا لنظرية «جيمس» . بل أن للانفعال معنى ، وهو يعنى شيئًا بالنسبة إلى حياتى النفسية . وفى وسع التأمل الانعكاسى المطهِّر فى

عمـلية الاختـزال الفنومنولوجى أن يدرك الانفـعال من حـيث هو مكوِّن للعالم فى صورته السحرية . «إنى أجد العالم بغيضًا لأنى غضبان».

غـير أن هـذا التأمل الانعـكاسى نادر الحدوث وهـو يتطلب بواعث خاصة . ونحن عادة نوجه إلى الشعور الانفعالى شعوراً انعكاسيًا مطاوعًا يدرك الشـعـور بوصفـه شـعوراً ولكن مـن حيث أن البـاعث عليـه هو الموضـوع: «إنى غـاضب لأن العـالم بغـيض» وابتداء مـن هذا الشعـور الانعكاسى يتكون الحماس الأعمى .

الخاتمـــة

كان الغرض من نظرية الانفعال التى فرغنا من إجمالها هو أن تكون بمثابة تجـربة لتكوين علم النفس الفنومنولوجى . وقد منعتنا بالطـبع صفة المثال الذى اتصفت به أن نتوسع فيها بما يجب أن نتوسع[1] . ومن ناحية أخرى كان لابد من استبعاد النظريات السيكولوجية المعتادة فى الانفعال ، فارتقينا بالتدريج من آراء «جيمس» النفـسية إلى فكرة المعنى . بينما يتعين على علم النفس الفنومنولوجى إن كـان واثقًا من نفسه وسبق له أن مـهد الطريق ، أن يبدأ مبـاشرة بالشعور الماهوى فيـحدد ماهية الواقعة النفـسية التى يستخـبرها . وهو ما حاولناه بالنسبة إلى الصـورة الذهنية فى مؤلَّف سيظهر عمـا قريب . ولكننا نأمل بالرغم من هذه التحفظات التـفصيلية ، أن نكون قد وفقنا فى إظهار أن واقـعة نفسية مثل الانفعـال ، وهو يعتبر عادة اضطرابًا لا يحكمه القانون ، هى واقعة ذات معنى خاص بها ، وأنه لا يمكن إدراكـهـا فى ذاتهـا دون فهم هـذا المعنى . ونود الآن أن نرسم حدود هذا البحث السيكولوجى .

لقد قلنا فى مـقدمتنا أن معنى واقـعة شعورية مـا هو أنها تدل دائمًا

---

(١) ونحن نأمل من هذه الناحيـة أن تسمح ملاحظاتنا بيـده دراسات وصفيـة كاملة عن الفرح والحزن إلخ . ونحن لم نقدم هنـا إلا التوجيهات الإجمالية لدراسـات وصفية من هذا القبيل .

على الواقع الإنساني في جملته ، من حيث أنه يجعل من نفسه واقعًا منفعلاً أو منتبهًا أو مدركًا أو مريدًا إلخ . وقد برهنت دراسة الانفعال على صحة هذا المبدأ . فالانفعال يحيل إلى ما يدل عليه من معنى . وما يدل عليه إنما هو مجموع علاقات الواقع الإنساني بالعالم . والانتقال إلى الانفعال تعديل شامل «للوجود في العالم» وفقًا لقوانين السحر الفريدة . ولكننا نرى مباشرة حدود مثل هذا الوصف : فالنظرية النفسية في الانفعال تفترض وصفًا تمهيديًا للوجدان من حيث أنه مقوِّم لكون الواقع الإنساني ، أي من حيث أن العنصر المقوِّم لواقعنا الإنساني هو أن يكون واقعًا إنسانيًا وجدانيًا . وفي هذه الحالة يبدأ وصف الانفعال من الواقع الإنساني كما يصفه ويحدده حدس أولي ، بدلاً من البدء بدراسة للانفعال أو للميول تشير إلى واقع إنساني لم يتم توضيحه بعد بوصفه الحد الأقصى لكل بحث ، وهو حد مثالي قد لا يصل إليه من يبدأ بالتجريب . إن المباحث المتباينة وعلم النفس الفنومنولوجي مباحث تراجعية وإن كان الحد الذي ينتهي عنده تراجعها مجرد مثل أعلى بالنسبة إليها ؛ وعلى الضد فإن مباحث الفنومنولوجية الخالصة مباحث تقدمية . ورب سائل يسأل عن السبب في إيثار الجمع بين هذين المبحثين في وقت واحد . إذ يبدو أن الفنومنولوجية الخالصة تكفي وحدها . ولكن إذا كان بوسع الفنومنولوجية أن تبرهن على أن الانفعال تحقيق لماهية الواقع الإنساني من

حيث هو وجدان ، فإن من المستحيل عليها أن تبين أن الواقع الإنسانى ينبغى أن يتجلى بالضرورة فى هذه الانفعالات عينها . ووجود هذا الانفعال أو ذاك ، ووجود هذه الانفعالات فحسب ، إنما يظهر دون أدنى شك واقعية الوجود الإنسانى . وهذه الواقعية هى التى توجب الرجوع إلى التجريب رجوعًا مضبوطًا . وهى التى قد تحول دون التقاء التراجع السيكولوجى والتقدم الفنومنولوجى أبدًا .

ثبت
المصطلحات والأعلام

الاختزال الفنومينولوجي Réduction phénoménologique

هو المنهج الأساسى الذى وضعه «هوسـرل» للتأدى إلى المجال المميز للفنومنولوجية ولإثارة المشكلات داخل هذا المجـال . وينحصر هذا المنهج فى «وضع العـالم بين قوسين» أى فى تعليـق الحكم على العالم الواقـعى الذى نعيش فيه . والامتناع منهجيًا عن إصدار أحكام وجودية تتعلق به . وإذ ذاك يبدو لنا العالم بوصفه ظاهرة مبـاشرة للشعور الخالص ، ويتجلى لنا أن ماهية الـشعور هو كونه شعـورًا بشىء ما . ومن ثم تتحدد مـهمة الفنومنولوجيـة فى وصفها بنيان الشـعور الخالص فى علاقتـه بموضوعات العالم ، واستـخلاص معنى الظواهر بإرجاعها إلى البنيـان المقابل لها من الشعور الخالص .

وليس مـعنى الاخـتـزال الفنومنولـوجى إنكار يقين الإدراك الحـسى والموقف الطبيعى من الـعالم ، وإنما معناه ضرورة الابتعـاد مؤقتًا عن هذا اليقين البـديهى الذى يفتـرضه كل فكر وكل فعل ، كـيمـا يتسنى إبرازه وإيضاح دلالته. أى أنـه يجب - كما يقول «هوسـرل» - أن نكف مؤقتًا عن «التـواطؤ مع العالم» لكى ننظر إليـه نظرة جديدة تكشف عن مـعنى العـالم وعن أصل الظواهر فى الشعـور الخالص . ومن هنـا فإن «فنك» Fink ، تلميـذ «هوسرل» ، يصف الاختزال بأنه «عـجب إزاء العالم» . وهو موقف شـاق لا يفتأ «هوسـرل» يحدد شروط إمـكانه ومداه . ويمكن القول مع «مرلو بونتى» Merleau-Ponty إن أهم ما يعلمنا إياه الاخـتزال

الفنومنولوجى هو أن الاختـزال الكامل محـال . (راجع مقدمـة كتابه «فنومنولوجية الإدراك الحسى» (*Phénoménologie de la perception*).

ومن الناحية التاريخية ، يعتبر الاختزال الفنومنولوجى تعديلاً بعيد المدى لمنهج الشك عند «ديكارت» . وقد وضح «هوسرل» أصول فكرة الفنومنولوجية عند «ديكارت» وتطورها فى الفلسفة الغربية فى كتابه : «أزمة العلوم الأوروبية والفنومنولوجية المتعالية» .

"Die Krisis der europaischen Wissenschaften und die Transzendentale Phanomenologie".

الارتباطيون Associationnistes

مدرسة فى علم النفس، حسية النزعة، تعتبر ارتباط الصور الذهنية - وهى مركبات من الإحساسات الأولية - وفقًا لقوانين معينة ، المبدأ الأساسى للحياة العقلية ، وتفسر على ضوئه العمليات الفكرية العليا . من أعلامها «لوك» (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ، و «هيوم» Hume (١٧١١ - ١٦٧٦)، «ميل» Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣)، و «هربرت سبنسر» Spencer (١٨٢٠ - ١٩٠٣) . انقرضت فى أواخر القرن التاسع عشر.

الآن Alain

اسم مستعار للفيلسوف الفرنسى «إميل شارتييه» Emile Chartier

(١٨٦٨ - ١٩٥١). عقلى النزعة، يجمع بين الاتجاهين الوضعى والمثالى، ويضع العقل مصدراً لكل حياة خلقية ، وأداة كافية لتطهير النفس . ويرى أن واجب الفيلسوف ليس هو الوصول سريعًا إلى النتيجة فى كل مشكلة ، بل المضى فى تحليلها بلا توان . ويتناول أحداث الحياة اليومية الخاصة والعامة ، والأمثلة العلمية دقيقة التحليل ، فيقيم عليها تأملات فلسفية ممتازة .

أصيل Authentique

نابع من الذات ومطابق لما هو عليه فعلاً ، يقابله الوجود الزائف أو غير الأصيل existence inauthentique، ومظهره - كما يقول «سارتر» - هو التمويه على الذات la mauvaise foi أى الكذب على الذات بتغطية حقيقة مؤلمة أو إحلال كذبة مقبولة محل حقيقة غير مقبولة . وهذا هو أحد التمييزات الأساسية فى فلسفة «هيدجر» «وسارتر» معًا .

(انظر الفصل الثانى من الجزء الأول من كتاب سارتر *L'être et le néant*) .

انعكاس Réflexion

عود الفكر على ذاته متخذًا موضوعًا له أحد أفعاله التلقائية أو مجموعة من هذه الأفعال . وبهذا المعنى ينحصر الانعكاس فى تناول ما

يسميه المدرسيون «المقاصد الثانية» . والشعور الانعكاسى conscience réfléchie شعور مرتد على ذاته ومتخذ نفسه موضوعًا للشعور ، ويقال أيضًا فى الفنومنولوجية conscience pasitionnelle أو conscience thétique أى شعور يضع موضوعه صراحة . ويقابله الشعور اللاانعكاسى conscience irréfléchie الذى ينصب على الموضوع ويستغرق فيه دون أن يكون له عن ذاته شعور مباشر صريح ، ويقال أيضًا بهذا المعنى conscience non-positionnelle أو conscience non-thétique أى شعور يضع موضوعه ضمنًا .

أوجه الشىء Abschattungen

يتضمن مفهوم الأوجه عند «هوسرل» فكرتين : الفكرة الأولى هى أن الشعور هو بالضرورة شعور بشىء يتعداه ويتميز عنه ؛ فاللون مثلا ليس لحظة من لحظات الشعور باللون ، وإنما هو تكشف لجانب من جوانب الشىء المعطى للشعور . والفكرة الثانية هى أن هذا التكشف يتم على دفعات ، فالشىء المدرك يتكشف للشعور تدريجًا فى سلسلة لا متناهية من المظاهر . وهذه المظاهر هى أوجه مختلفة لنفس الشىء .

(راجع الفقرة ٤١ من كتاب هوسرل) :

"Ideen zu einer reinen: Phânomenologie nnd phânomenologischen philosophie".

أولى Apriori

فى الفلسفة المتعالية عند كنت ، الأولى هو السابق على التجربة ، أو هو مجموع الشروط المنطقية الضرورية لإدراك العالم وتفسيره تفسيراً علميًا.

ويقابله بعدى a posteriori : مكتسب من التجربة ومتوقف عليها.

بيرس Peirce

فيلسوف أمريكى (١٨٣٩ - ١٩١٤) ، يعتبر الرائد الأول للمذهب العمل (البرجماتى) . تأثر به «وليم جيمس» و «جون ديوى» . يقيم العمل مبدأ مطلقًا ، فتصورنا لموضوع ما ، تصور يحدثه من آثار عملية ، وبالتالى يكون معيار الحقيقة العمل المنتج .

تفسير Explication

غاية البحث العلمى الموضوعى فى العلوم الطبيعية ، وينحصر فى وضع العلاقات العلية المجردة بين الوقائع التى يدرسها من خارج بوصفها أشياء ، ويربط بينها فى قانون يسمح بالتنبؤ بها . ومن هنا يختلف عن «الفهم» الذى يقع على الظواهر النفسية من داخل بوصفها موضوعات مباشرة للشعور ، ويستهدف المعنى ووضع العلاقات الحدسية المفهومة بين الظواهر باعتبارها تصدر بعضها عن بعض . وهذا التمييز بين التفسير

والفهم، وبين علوم الطبيعة وعلوم الإنسان ، هو أحد التمييزات الأساسية فى الفنومنولوجية المعاصرة .

(قارن : «فهم») .

جانيه P. Janer

«بيير جانيه» (١٨٥٩ - ١٩٤٧) طبيب نفسى فرنسى ، نقض القول بأن الشعور ظاهرة لاحقة ، وأعاد إلى العامل النفسى اعتباره فى تفسير الأمراض العصبية ، فحد الهستيريا بأنها مرض نفسى فى جوهرها ، وفسر الاضطرابات النفسية الخطيرة بالذكرى المنسية لأحداث مرتبطة بانفعالات عنيفة . ولكنه بقى رغم ذلك فى مستوى التفسيرات الآلية البحتة ، ولم يرق إلى المستوى الدنيامى ، فالنسيان عنده مرده إلى الضعف النفسى لا إلى الكبت .

جيمس W. James

«وليم جيمس» (١٨٤٢ - ١٩١٠) عالم نفسى، وفيلسوف أمريكى ، وضع فى علم النفس النظرية السطحية فى الانفعالات ، وفى الفلسفة المذهب العملى (البرجماتى) الذى يعتبر الفكر وثيق الصلة بالعمل ، فتعرف الحقيقة بنتائجها العملية ، فالحقيقى هو ما يؤدى إلى النجاح . ويميز «جيمس» بين مستويات ثلاثة للتجربة : التجربة الطبيعية حيث

يعتبر حقيقيًا النافع الذى يسمح بالتنبؤ والعمل المثمر ؛ والتجربة النفسية حيث يعتبر حقيقيًا ما يلائم الفكر ويعود على النفس بالهدوء والسكينة ؛ والتجربة الدينية حيث يعتبر الاعتقاد الحقيقى ما يسرى عن الأفراد ويثبت قلوبهم فى المحن ويسمو بهم فوق مستوى أنفسهم .

جيوم P. Guillaume

عالم نفسى فرنسى معاصر ، وأستاذ علم النفس السابق فى السوربون، سلوكى النزعة، ومتأثر بمدرسة الجشطلت. أهم مؤلفاته «سيكولوجية الصيغ» *"Psychologie de la Forme"* «وتكون العادات»، *"La Formation des Habitudes"* .

دمبو T. Dembo

«تمارا دمبو» ، عالمة نفس معاصرة ، من تلامذة «كورت لفين» ، ومن أبرز المشتغلين بنظرية المجال . اشتهرت بدراستها لظاهرة الغضب من حيث هى ظاهرة دينامية .

رقابة Consure

اصطلاح أطلقه «فرويد» على وظيفة نفسية لا شعورية تعمل على منع الرغبات والذكريات والأفكار المكبوتة من الوصول إلى مستوى الشعور ،

وتتبدى خاصة فيما ينال الوقائع الشعورية المناظرة لهذه المكبوتات من ضروب الحذف والتقنيع والتحوير الرمزى .

سادية Sadisme

نزعة جنسية منحرفة ، تتميز بنشدان اللذة الجنسية فى تعذيب الآخرين من كلا الجنسين . وتنسب إلى «الماركيز دى ساد» Marquis de Sade من فلاسفة القرن الثامن عشر المتمردين على التصور العقلى والدينى للعالم .

سارتر J. P. Sartre

ولد «جان بول سارتر» فى باريس ، فى ٢١ يونيه ١٩٠٥ لأب بروتستانتى وأم كاثوليكية . وتوفى أبوه عام ١٩٠٧ ، بحمى أصيب بها فى الهند الصينية حيث كان يعمل ضابطًا بحريًا . وتلقى دراساته الأولى فى ليسيه هنرى الرابع ، ودراسته الثانوية فى ليسيه لاروشيل فى باريس . ثم التحق بالنورمال (مدرسة المعلمين العليا فى باريس) عام ١٩٢٤ ونال الأجرجاسيون عام ١٩٢٩ . وبعد أن أتم خدمته العسكرية ، عين مدرسًا للفلسفة بالهافر عام ١٩٣١ . وأمضى سنة دراسية (١٩٣٣ - ١٩٣٤) فى المعهد الفرنسى فى برلين . وحين عاد إلى فرنسا اشتغل ثانية بتدريس الفلسفة فى الهافر ولاءون وباريس .

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ جند بالخدمة الطبية ، وأسر عام ١٩٤٠ ثم أطلق سراحه عام ١٩٤١ . وعاد إلى باريس حيث أصبح من زعماء حركة المقاومة السرية . واعتزل التدريس فى المدارس الثانوية ابتداء من عام ١٩٤٥ ، وفيه قام بأولى سفراته إلى الولايات المتحدة باعتباره صحفيًا . ومذ ذاك التاريخ ، استقر فى باريس وقام بسفرات عديدة إلى الولايات المتحدة وأفريقية وأيسلنده وسكندينافيا والاتحاد السوفييتى وغيرها .

وأول إنتاج فلسفى نشره مقال عن «تعدى الأنا» "La Transcendance de L'Ego" ظهر فى مجلة "Recherches Philosophiques" عام ١٩٣٦ ، ويعرض فيه محاولة لوصف فنومنولوجى للمجال المتعالى للأنا فى علاقته بالموضوعات .

وفى «الخيال» *"L'Imagination"* (١٩٣٦ أيضًا) يناقش طبيعة الخيال والصورة المتخيلة ، وينقد النظريات الفلسفية السابقة فى ذلك ، ولكنه لا ينتهى إلى موقف مرض ، فيترك مشكلة الصورة الخيالية معلقة : كيف يمكن لموضوع الإدراك الحسى أن يحضر للشعور ، دون أن يكون حاضراً للشعور ؟ فكأن الكتاب تمهيد أولى لوصف الموضوع الخيالى ، تمهيد يستهدف إيضاح المسلمات الفلسفية الضمنية التى تدخلت خفية فى نظرة الفلاسفة والعلماء إلى الخيال والصورة الخيالية ، فشوهت هذه النظرة وخلقت مشاكل زائفة وحجبت ماهية الظاهرة موضع الدرس .

ثم يعود إلى المشكلة فى «المتخيَّل» "L'Imaginaire" الذى صدر عام ١٩٤٠ ، أى بعد صدور «نظرية فى الانفعالات» بسنة واحدة ، فيحلها على ضوء نظريته العامة فى البنيان الخيالى للشعور بوصفه بنيانًا ما جوهريًا له.

وفى «الكون والعدم» "L'Etre et le Néant" (١٩٤٣) يعرض مذهبه الفنومنولوجى فى الوجود . فيبحث فى «الكائن فى ذاته» être-en-soi وهو موضوع الشعور ، و «الكائن للذاته» être-pour-soi وهو الشعور ، و «الكائن لأجل الآخر» être-pour-autrui .

وقد وضع «سارتر» عددًا من المسرحيات والقصص ، وأصدر مجلة «العصور الحديثة» Les Temps Modernes ، وشارك فى الحياة السياسية فى فرنسا والعالم .

راجع F. Jeanson: *Sartre par lui-même*. Seuil. Paris, 1955

النظرية السطحية La Théorie périphérique

نظرية توصل إليها على حدة كل من «لانجه» «ووليم جيمس» فى وقت واحد تقريبًا (١٨٨٤ ، ١٨٨٥ على التوالى) إذ ابتدأ كل بدراسة الانفعال من وجهة النظر الفسيولوجية . ومؤداها وجوب الانصراف عن تحليل الانفعال على ضوء المشاهدة الداخلية ، والاستعاضة عن ذلك

بالدراسة الموضوعية للحركات العضوية المصاحبة للانفعال . وتقول النظرية إن هذه الحركات ليست مجرد تعبير عن الانفعال ، وإنما هى لب الانفعال ، وهى لا تعقبه بل تسبقه ، فهى علته وليست نتيجة له ، وما الانفعال إلا إحساس بالحالة الفسيولوجية القائمة وهذه النظرية تقابلها النظرية اللحائية الثلامية théorie Cortico-thalamique التى تفسر الانفعال بالرجوع إلى الجهاز العصبى المركزى .

سلوكية Behaviourism

مذهب فى علم النفس ، دعى إليه «وطسن» (١٩١٣) ، ينص على أن موضوع علم النفس قاصر على السلوك الخارجى الحركى واللفظى والغدى ، مع استبعاد الشعور استبعادًا تامًا ، وعدم اللجوء لا إلى المشاهدة الداخلية ولا إلى العمليات الفسيولوجية الداخلية .

سيكولوجية الصيغ Psychologie de la Forme

(تسمى أيضًا بنظرية الجشطلت Gestalt theorie)

نظرية نفسية فى الأصل ، ثم عممت بعد ذلك فاضحت تفسيرًا للوقائع الحيوية والفيزيقية ، روادها «فرتايمر» Wertheimer (١٨٨٠ - ١٩٤٣) ، «وكولر» Kohler (١٨٨٧ -) ، «وكوفكا» Koffka (١٨٨٦ - ١٩٤١) . وتنحصر فى دراسة العالم كما يبدو مباشرة للشعور ،

باعتباره ظواهر لها بنيانها الخاص وقـوانين ظهورها . فهى ليست مجموعة من العناصـر البسـيطة التى يتـعين أولا عزلهـا وتحليلها ، بل هى صـيغ ومجموعـات مترابطة الأجزاء ، تتسم بتماسك داخـلى يجعل منها كلا . وهكذا تتوقف خصائص كل عنصر على خصائص الكل الذى يضمه وعلى القوانين التى يخضع لها تنظيم هذا الكل .

الضعف النفسى Psychasthénie

حالة نفـسية مـرضية حددها وسـماها «بيير جانيه» ، تنحـصر فى مجمـوعة من الوساوس والحوافز والشكوك ومـشاعر النقص ، تكون نمطًا مرضيًا محددًا ومتمايزًا عن النوراسـتانيا (أو الضعف العصبى) التى كانت تنسب إليها هذه الاضطرابات قبل ذلك . وسمتها المميزة عند «جانيه» هى «انعدام الحسم فى الأمور والتقرير الإرادى والاعتقاد والانتباه ، والعجز عن الإحساس بالموقف الراهن » . فهى نقص فى «وظيفة الواقع» .

ويطلق هذا الاصطلاح أحيانًا مرادفًا للوسواس والعصاب الوسواسى:

névrose obsessionnelle

الطابع التجريبى والطابع الجوهرى :

Caractère empirique et caractère nouménal

تفرقة يضعها «كنت» متمشيًا مع تميـيزه بين عالم الظواهر أو العالم التجريبى، وهـو وحده المتاح للمعرفـة الإنسانية المركبـة من حدس حسى

ومقولة فكرية ، وعالم الأشياء بالذات noumènes أو العالم المعقول الذى لا يصل إليه العلم الإنسانى إطلاقًا لافتقاره إلى حدس عقلى يناظره. ولكن إذا كان محالا على الإنسان أن يعرف العالم المعقول فإن بوسعه أن يفكر فيه ، بل وأن يقترب منه نوعًا ما فى الفعل الخلقى . ويستعين كنت بهذه التفرقة بين الطابع التجريبى والطابع الجوهرى فى حل مشكلة الحرية . فالفعل الإنسانى فى طابعه التجريبى ، أى من حيث هو حد فى سلسلة الظواهر المحتومة ، يخضع تمام الخضوع للعلية الحتمية المسيطرة على عالم الظواهر . ولكن هذا الفعل حر فى طابعه الجوهرى ، أى من حيث هو صادر عن الإنسان بوصفه هو مشروع قانونه الخلقى ، مستقلا عن كافة الدوافع الحسية . فالفعل الخلقى يحقق الحرية .

طوبولوجية Topologie

دراسة المكان من حيث ترتيب أجزائه بعضها بالنسبة إلى بعض ، والشكل المكانى الناتج عن هذا الترتيب . وقد استعان «كورت لفين» بهذه الفكرة فى وضع ما أسماه علم النفس الطوبولوجى ، وهو مبحث يرمى إلى دراسة المجال السيكولوجى من حيث انقسامه إلى أقسام ، ومن حيث أن السلوك انتقال من قسم إلى آخر . فهو إذن دراسة كيفية لهندسة السلوك .

(قارن « كورت لفين ») .

ظاهرة لاحقة Epiphénomène

عبارة يستخدمها المذهب القائل بأن الشعور ظاهرة لاحقة Epiphénomenalisme حيث يعتبر الشعور ظاهرة عارضة لا يدخل حضورها ولا غيابها فى إحداث الظاهرة الجوهرية وهى العمليات العصبية، ولا تؤثر فيها إلا بقدر ما يؤثر الظل فى خطى السائر .

عرض Accident

« ما يمكن أن يحدث أو يختفى دون فساد الموضوع » ، أى ما لا يدخل فى ماهية الشىء .

ڤالون H. Wallon

«هنرى ڤالون» معاصر ، عميد علم نفس الطفل فى فرنسا ، وأستاذ بالكوليج دى فرانس ، قدم إضافات هامة إلى هذا العلم ، ولا سيما فى المراحل المتمايزة لنمو الطفل حيث تكون كل مرحلة مجموعة أصيلة لا يمكن تجزئتها . ويرتبط هذا النمو من ناحية بظواهر النضج الوظيفى ولا سيما للجهاز السمبثاوى الغدى والجهاز العصبى الإرادى ، ويرتبط من ناحية أخرى بالبيئة .

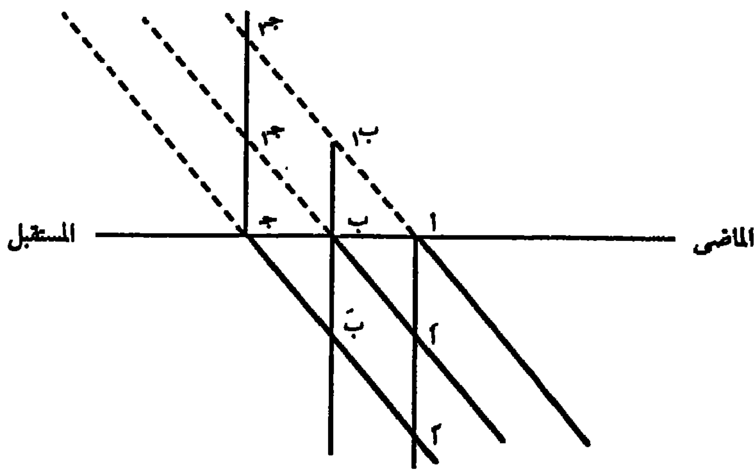
فرض عملى Hypothèse de travail

فرض يوضع لتسهيل السير فى مبحث علمى معين ، دون أن يكون له حقيقة موضوعية أو مقابل من الواقع .

فعل الترقب الشعورى Protension

اصطلاح ابتكره «هوسرل» فى «محاضرات فى فنومنولوجية الشعور الداخلى بالزمان» *Vorlesungen zur Phânomenologie des inneren Zeitbe-wusstseins* فى معرض كلامه على الأفعال القصدية التى تربط الذات بمحيط معين . وهذه الأفعال تضم أفعال الترقب الشعورية protensions وأفعال الاستبقاء الشعورية rétentions . ذلك بأنى أجد نفسى مرتبطًا بمجال مؤلف من أشياء حاضرة «هذه الورقة ، هذا القلم ، صباح اليوم» . وهذا المجال له امتداد إلى أفق من أفعال الاستبقاء الشعورية «فقد انتهيت من هذا السطر توًا» كما أن له إسقاطًا فى أفق من أفعال الترقب الشعورية «عما قريب انتهى من هذه الفقرة» . وهذان الأفقان متحركان دومًا . فتلك اللحظة السابقة تتغير ، وإن ظلت موجودة، فتبهت وتنحدر إلى ما دون خط الحاضر ، ولكنى لست مقطوع الصلة بها ، لأن بوسعى أن أتعرف عليها ؛ وإنما يتعين على لاستبقائها أن أمد يدى عبر طبقة زمنية رقيقة . فإذا جاءت لحظة ثالثة ، تغيرت اللحظة الثانية من جديد ، فأصبحت استبقاء لاستبقاء ، وزاد سمك الطبقة الزمنية بينى وبينها ، وهكذا .

ويقال هذا بالمثل على أفعــال الترقب الشعورية حيث يتغيــر سمك الطبقة الزمنية بــينى وبينها تبعًا للآن الــذى تسقط عليه «فليــس الزمان خطًا بل شبكة من الأفعال القصدية» . ويوضح ذلك ، الرسم البيانى التالى الذى أورده «مرلوبونــتى» فى «فنومنولوجيــة الإدراك الحسى» *"Phénoménologie de la percepsion"* ص ٤٧٧ نقلاً عن كتاب «هوسرل» آنف الذكر ص ٢٢



وفى هذا الرسم يدل الخط الأفــقى على سلسلة «الآنات» ، والخطوط المائلة التامــة على معالم هذه الآنات نفــسها منظوراً إليــها من آن لاحق ،

والخطوط المائلة المتقطعة على معالم هذه الآنات منظوراً إليها من آن سابق ، والخطوط الرأسية على المعالم المتتابعة لآن واحد بعينه .

وينبغى أن نلاحظ أن فعل الاستبقاء الشعورى ليس هو التذكر ، وإنما هو شرط التذكر ، فبه تظل الخبرة الشعورية موضوعًا باقيًا لدى وإنما على صورة معدلة : هو أنها لم تعد حاضراً .

الفكرة (بالمعنى الكنتى) Idée

تسمى أيضًا مفهومًا منظمًا Concept tégulateur، والمعنى : مفهوم صورى خلو من الحدس ، يقصد به تنظيم البحث العلمى وتوحيد نتائج التجربة فى المستوى المتعالى . والأفكار المتعالية (المفهومات المنظمة) عند «كنت» ثلاث : «النفس» وتعبر عن الوحدة المطلقة للظواهر النفسية ، و«العالم» وتعبر عن التنظيم الكامل للظواهر الطبيعية ، و «الله» وتعبر عن وحدة الموجودات قاطبة . ويرى «كنت» أنه يمكن أن تكون لهذه الأفكار قيمة مشروعة إذا اعتبرت الوحدة التى تعبر عنها مثالية ينبغى التطلع إليها ، ولم تعتبر حقيقة أولية ، كما اعتبرتها المذاهب التقريرية الفلسفية السابقة على فلسفة «كنت» .

فنومنولوجية Phénoménologie

اصطلاح وضعه «هيجل» فى «فنومنولوجية الروح» *"Phoanménologie de Geistes"* ، ومعناه الحرفى : علم الظواهر فى

مستواها المتعالى . وكان «هيجل» يقصد به «علم الشعور» حيث يحد الشعور بأنه «علاقة محددة بين الأنا وموضوع ما» ، ويضيف أنه «إذا نُظر إليه من الناحية الموضوعية أمكن القول إنه يتغير تبعًا لاختلاف هذه الموضوعات» . وبالمثل يحد الموضوع بعلاقته بالشعور . وبذلك يكون الشعور دائمًا شعوراً بشيء ما ، ولا يكون ثمة موضوع . إلا أن يكون موضوعًا لشعور ما . ونجد صدى لهذا الموقف عند «هوسرل» حيث الشعور تفتح نحو شيء ما ، وحيث يكشف التحليل القصدى عن قطبين، هما : «فعل الشعور القصدى» noése ، «والمقابل الموضوعى» noéme.

وتعتبر الفنومنولوجية الهوسرلية مرحلة من مراحل الفكر الأوروبى ، قامت ردًا على المذاهب النفسية والبرجماتية والاجتماعية (دوركيم) والنسبية العلمية (بوانكاره ودوهيم) ، وهى المذاهب التى تميز أزمة الفكر الأوروبى فى مطلع هذا القرن . وتتلاقى جميعًا فى انتهائها إلى النسبية الشكية . فجاءت الفنومنولوجية محاولة لتأسيس العلوم الطبيعية والإنسانية جميعًا على أسس جديدة مطلقة ، غير متحيزة لمذهب ولا لآخر فى طبيعة العالم. وهى تقوم على مبدأ «المضى إلى الأشياء ذاتها» ، أى إلى الظواهر مثلما تبدو مباشرة للشعور ، مع الحرص على عدم وضع أى فروض ، سواء من ناحية الكائن التى هى مظهر له ، أو من ناحية الأنا التى هى ظاهرة له . فالظاهرة «قطعة الشمع» ينبغى وصفها من حيث هى كذلك ، والبقاء فيها دون الانتقال منها إلى فلسفة الجوهر الممتد كما فعل

«ديكارت»، ولا إلى فلسفة المكان بوصفه صورة أولية للحساسية ، كما فعل «كنت» ، وإلا لفقدنا الشيء ذاته واستعضنا عنه بشيء سواه .

والوصف يفضى بنا إلى إدراك ماهيات أو معان من خلال الوقائع والأحداث التجريبية ، ندركها مباشرة بالحدس . والمبدأ الأعلى الذى بفضله يكتسب كل شيء معناه هو «الأنا المتعالى» الخارج عن العالم وإن كان متجهًا نحوه. وليس هذا الأنا المتعالى فريداً فى نوعه ، إذ يدخل فى معنى العالم أن يظهر لكثير من الذوات ، وتظهر موضوعية العالم بوصفها «ذاتية مشتركة متعالية» "inter-subjectivité transcendentale" . ولابد لإدراك المجال المتعالى من موقف يشق اتخاذه ويختلف كثيراً عن الموقف الطبيعى ، والعنصر الحاسم فيه هو ما يسميه «هوسرل» : «الاختزال الفنومنولوجى» .

(قارن أيضًا: اختزال فنومنولوجى، قصدية، كوجيتو، ماهية، متعال) .

فهم Compréhension

يقابل بالألمانية "Verstehen" بالمعنى الذى يقصد الفيلسوف الألمانى «ديلتاى» Dilthey (١٨٣٣ - ١٩١١) حيث يرى أن العلوم الإنسانية Geisteswissenschaften ولا سيما علوم النفس والاجتماع والتاريخ ينبغى عليها أن تأخذ بوجهة نظر مغايرة للعلوم الطبيعية . فهذه ترمى إلى تفسير

الأشيـاء بالارتقاء مـن علة إلى أخرى ، بينمـا يتعين على علوم الإنـسان بفهم الأحوال المُعـاشة أو الخبرات الشعـورية المباشرة Erlebnisse . التى تختص بدراستها ، بلون من التعاطف الوجدانى المبـاشر «فالطبيعة نفسرها ، أما الحـياة النفسـية فنفهـمها» . وبذا يكون الفـهم إدراك المعنى إدراكاً حدسياً . ويرى «شيلر» Scheler أن الفهم من حـيث هو للفعل ولمعناه الموضوعى ليس إلا مشاركة كائن روحى فى حياة كائن روحى آخر .

وهى المقابلة بين الفهم والتفسـيـر ، هى مقابلة بين العيانى الوجودى والمجرد العـقلى ، بين الحدس الوجـدانى والفكر الاستـدلالى . وهى فى أصل التـفكير الفنومنولوجى عنـد «هوسرل» و «هيـدجر» و «ياسـبرس» Jaspers و «شيلر» وغيرهم .

قصدية Intentionalité

الخاصة الماهوية للشعور كمـا يصفه «هوسرل» من حيث هو اتجاه إلى موضع مـا بدونه لا يكون الشعور شـيئاً على الإطلاق . فكل شـعور هو شعور لـشىء ما ، ولا يكن تصوره إذا سلب ما هو شـعور به ، بل ولن يكون آنذاك شعوراً بالعدم لأن هذا العدم سيكون هو موضوع الشعور .

والقصـدية هى شرط إمكان الاخـتزال الفنومنولوجى ، حـيث يظهر الموضوع بوصفه ما يُقصد إليه ، أى مقابلا مباشراً للشعور .

كانون ، و.ب. W. B. Cannon

عالم نفسى وفسيولوجى أمريكى معاصر ، صاغ مبدأ إعادة التوازن Homeostasis ومؤداه أن إحدى الخصائص العامة الأساسية للكائنات الحية هى اتجاهها إلى الاحتفاظ بظروف الحياة فى مستوى ثابت واستعادة هذا المستوى إذا طرأ عليه تغير . و «كانون» يتجه بفكره خاصة إلى الأحوال الفسيولوجية السائدة داخل الكائن العضوى ، أو ما يسمى بالوسط الداخلى .

كوجيتو Cogito

مبدأ «ديكارت» : «أفكر فأنا موجود» "Cogito ergo sum" حيث يضع الشعور بوصفه اليقين الوجودى الأول ، والمعطى الوحيد المباشر . وقد قامت عليه الفنومنولوجية عند «هوسرل» باعتبار أن الشعور هو دائماً شعور بشىء ما ، والكوجيتو الهوسرلى يظهر الأنا بوصفه أساساً مطلقاً ومصدراً لكل معنى ، ورابطة قصدية بالموضوع .

لفين Kurt Lewin

«كورت لفين» (١٨٩٠ - ١٩٤٧) من كبار علماء النفس وواضع نظرية المجال Field theory التى تعتبر توسعاً فى نظرية الجشطلت بحيث شملت تحليل الظواهر الاجتماعية ودراسة ديناميات الجماعة . والمبدأ

الأساسى فى هذه النظرية هو الرجوع إلى دراسة السلوك (الفردى أو ١٤٦ الجماعى) باعتباره ناتجاً عن تفاعل الشخص والبيئة فى الموقف الحاضر . وليس المقصود بالشخص ، الفرد فى موضوعيته ، ولا بالبيئة البيئة الجغرافية ، وإنما المقصود الشخص كما هو موجود بالنسبة لذاته ، والبيئة كما هى موجود بالنسبة للشخص فى لحظة معينة . وبعبارة أخرى فإن «لفين» يدرس الفرد والبيئة بالمعنى السيكولوجى ويرجع فى هذه الدراسة إلى خبرة الفرد الشعورية بذاته وبالعالم . وتنص هذه الدراسة على أن الفرد والبيئة حدان متضايفان ، فالفرد دالة للبيئة ، والبيئة دالة للفرد . «وهذا الكل من الوقائع المتآنية ، إذا تصورناها بوصفها وقائع يعتمد بعضها على بعض اعتماداً متبادلا ، هو ما يسمى بالمجال» . ويحدد «لفين» مهمة علم النفس بأنها تصوير المجال السيكولوجى تصويراً علمياً دقيقاً والعمل على اكتشاف الدوال التى تربط بين السلوك والمجال السيكولوجى . لذلك نجد «لفين» يهتم بإيجاد هندسة خاصة سماها بهندسة «المجال المسارى (Hodological space) يحاول على أساسها تحديد «القوى النفسية» وقياسها قياساً موضوعياً ، يستعين فيه بعدد من مفهومات علم الديناميكا ، مثل مفهوم «القوة» (force) و (الكمية الموجهة) (vector) و «النقلة» (locomotion) ، بعد تحويرها بما يلائم علم النفس .

(راجع كتابى لفين :

Field theory in social science; The conceptual representation and the measurement of psychological forces.

ماهية Eidos أو Essence

الماهية عند «هوسرل» هى ما يتبدى به «الشىء نفسه» للشعور «فى خبرة شعورية مباشرة» . وليست الماهية كياناً خفياً فى باطن الشىء ، مثلما تقتضى المقابلة القديمة بين الباطن والظاهر ، أو بين الجوهر والعرض. بل إن الماهية فى التصور الفنومنولوجى هى معنى الوقائع الفردية ، فكل واقعة فردية لها ما يميزها عن غيرها ، ولها خصائصها الضرورية ، بحيث يمكن استخلاص الماهية عن طريق تحويل حدس الواقعة الفردية تحويلا مقصوداً . «ومثال ذلك أن لكل صوت من سلم الموسيقى، فى ذاته ولذاته ، ماهيته الخاصة ، ثم تأتى ماهية الصوت عامة ، والمقصود بها الحد المجرد الذى يمكن استخلاصه استخلاصاً حدسياً من الموضوع الفردى (سواء كان ذلك بالنسبة إلى حالة منعزلة ، أو بمقارنته بحالات أخرى باعتباره العنصر «المشترك») .

ويمكن إدراك الماهية بعملية «التغيير الخيالى» . فأغير موضوعاً ما ، وأحذف عنه فى الخيال صفة بعد أخرى ، حتى أصل إلى بعض خصائص لا أستطيع رفعها بدون القضاء على الموضوع ذاته . ففى هذا

«الشعور بالمحال» تكشُّف للماهية . فالماهية هي الثابت في الموضوع خلال كل التغيرات المتخيلة . ويعتبر تحليل «سارتر» للانفعال مثالاً قريباً للتكشف التدريجي لماهية الانفعال بالنسبة إلى الشعور الخالص .

تدرك الماهية إذن في حدس يتصوره «هوسرل» على غرار الإدراك الحسي ويسميه «حدس الماهية أو «عيان الماهية» Wesenschau . وليس لهذا الحدس أي طابع ميتافيزيقي . ومن هنا تختلف الماهية الفنومولوجية عن المثال الأفلاطوني الذي يمثل الماهية مستقلة عن الشعور وعن العالم الحسي معاً .

والصفة من الماهية هي «الماهوي» eidétique . ويطلق «هوسرل» هذه الصفة على كل ما يتعلق بـ«الإيدوس» أي بماهيات الأشياء لا بوجودها . فالاختزال الفنومنولوجي هو في الوقت عينه اختزال ماهوي، حيث يحل هذا النظر في الماهيات محل التجربة بالمعنى المألوف . والعلوم الماهوية Wesenwissenschaften تنظر في ماهيات موضوعات العلوم التجريبية . فكل علم تجريبي يجب أن يسبقه علم ماهوي ينظر في ماهية موضوعه . فعلم النفس لا يمكن أن يقوم على أسس صحيحة ما لم تحد ما هية الموضوعات النفسية مقدماً حداً يمتنع معه التباسها بماهية الموضوعات الطبيعة . وهذه الماهية يفترضها ضمناً العالم التجريبي ، وإلا ما أمكن تصور مضيه في البحث ، ولكن الفنومنولوجي يطالب بإظهارها وإيضاحها . وتحد الفنومنولوجية ذاتها بأنها علم ماهوي للشعور ،

وبالتالى مقدمة ضرورية لكافة العلوم الإنسانية التجريبية التى تتضمن بالضرورة ماهية للشعور .

متعال Transcendental

اصطلاح وضعه المدرسيون أولا للدلالة على معان تتعدى مقولات أرسطو أو تعلوها وتصلح لجميع الموجودات ، مثل الواحد ، والحق ، والخير ، والوجود ، والشىء ، العين والسوى ، والضرورى والممكن ، والقوة والفعل .

ولكن «كنت» يستعمله فى وصف المعرفة ، فى مقابل التجريبى . فالمتعالى شرط أولى لإمكان التجربة وهو غير موجود فيها ، فالمبادئ المتعالية هى قوانين الفكر الضرورية من حيث هى قواعد المعرفة التجريبية، والوجدان المتعالى هو إدراك الذات لا بالمشاهدة الداخلية بل بضرورة منطقية : فلكى تكتسب التصورات قيمة موضوعية لابد أن أفكر فيها بوصفها تصوراتى أنا ، أى أن أربطها فى شعورى أنا ، وبذا يكون الأنا هو الشرط الأساسى لإمكان التجربة .

ويطلق المتعالى فى الفنومنولوجية بوجه خاص على«الأنا المتعالى» أو «الشعور المتعالى» أو الخالص ، أو ما يتصل به ، وهو الأنا والشعور الذى نتأدى إليه فى الاختزال الفنومنولوجى ، حيث نفصل بوضوح بين الموضوعات الطبيعية من ناحية ، والذات المتعالى من ناحية أخرى ، إذ

يبين إمكان الأولى (لإمكان الشك فى وجـوده أو التوقف عن الحكم فـيه) وضرورة الثانى الذى يبدو لذاته بوضوح ضرورى مطلق حتى يغدو الشك أو التوقف عن الحكم فـيه محـالا لا معنى له . فهذه الـتفرقة تفـرقة بين نمطين للوجود متبـاينين : وجود الشىء ووجود الأنا . وبذا يقال إن الأنا متعال بمعنى أنه أساس للموضوع المتـمايز عنه : فالشعور من حيث الماهية يحيل إلى العالم ويـتضمن إمكان وجود العالم بوصـفه موضوعاً مـباشراً له.

المذهب النفسى Psychologisme

اصطلاح أطلقه «هوسرل» فى «الأبحـاث المنطقية» *"Logische Untersuchungen"* ، للدلالة على نزعة تجـريبية فلسفيـة شاعت فى أخريات القرن التـاسع عشـر ، وإن كان لها رواد سـابقون ، ويمثلهـا فى الحقـبة الأخيرة «جون ستـيوارت مل» فى الفلسلفة الإنجليزية ، و «فنت» Wundt، و«سيجفرت» Sigwart ، و «لـبـس» Lipps من الألمان ، ومـؤداها أن المعرفة فى مادتها وصورتها ليست إلا وقـائع نفسية للعارف ، فالتصورات والمبادىء المنطقية أحوال نفسية يحياها الفـرد ، والحقيقة اعتقاد شخصى ، وبذلك تنتهى الفلـسفة والعلم جمـيعاً إلى علم النـفس ، ويصبح المنطق فرعًا من فروعه ، حيث ترد الماهيات الرياضية والمنطقية جميعًا إلى أفعال نفسية . وبذلك نتتـهى إلى المذهب النسبى فى الشك ، حيث الإنسان - بمعنى الفرد - هو مقياس كل شىء . وبذلك تفقد المعرفة صفتها العلمية:

أى الكلية والضرورة .

وينقض «هوسرل» هذا المذهب بنظـريته فى «الماهية» . ففى المستوى المنطقى تحد المعـرفة بأنها مـعرفة الحقـيقة : فـحين أصف قضية مـا بأنها حقيقية فإنى أعتبرها فى موضوعيتها المثالية صادقة دائمًا وعند الكل . وبذا فإن الـشروط المنطقـية لولاها لما كـانت هناك أية حقـيقـة ، لا يمكن أن تتوقف على الأحوال النفسية للفرد . فهذه الشروط تحد ماهية الحقيقة ، فى ذاتها ، وكمـا يعترف بها المذهب الـشكى ذاته من حيث هو يضع نظرية أنها صادقة . والمنطقى حين يقول «إن إحدى القـضيتين المتناقضتين كاذبة بالضـرورة» لا يستند فى هذا إلى مـشاهدة وقـائع الشعور بـل إلى حدس عقلى يتجلى فيه عدم التناقض بوصفه ماهية كل قضية صادقة .

والمثل يقـال على الماهيـات الرياضيـة . فـلا شك أن تصور العـدد يقتضى منى أن أقوم ببعض الأفعال النفسـية كالعد مثلا . بيد أن «تصور العدد ليس هو العدد ذاته» كما يقول «هوسرل» ، والأفعال النفسية إنما هى شروط مبدئية لحدس ماهية العدد .

وفى مستوى الإدراك الحسى ، الميـدان المفضل لدى الحسيين ، ينقض «هوسرل» المذهب بالعود إلى الأشياء نفسـها ، فيبين أن الماهية ليست من خلق الخيـال ، لأن هناك فى الخيال حدودًا لا يتـخطاها . وهذا هو معنى «التغيير الخيالى» الذى يخضع لشرط «الشعور بالمحال» .

قارن « ماهية » .

هوسرل Edmund Husserl

«إدموند هوسرل» (١٨٥٩ - ١٩٣٩) ، ولد فى موارفيا لأسرة يهودية. وتلقى دراساته العلمية فى فينا . ونال درجة الدكتوراه عام ١٨٨٣ على رسالة فى الرياضيات بعنوان «إضافات إلى نظرية حسابات المتغيرات» *"Beitrage Zur Variationsrechnung"* . وتنصب مؤلفاته الأولى المنشورة على منطق الرياضيات واللوجستيقا ومنها : «فلسفة الحساب» *"Philosophie der Arithmetik"* ظهر منه الجزء الأول فقط (١٨٩١)، و «الأبحاث المنطقية» *"Logische Untersuchungen"* (الجزء الأول عام ١٩٠٠، والثانى عام ١٩٠١) . وكان «هوسرل» آنذاك أستاذًا بجامعة «هله» Halle . ثم انتقل إلى التدريس بجامعة «جوتنجن» Gottingen اعتبارًا من ١٩٠٦ ، فى جو محموم تكونت فيه آنذاك اتجاهاته الأولى («فكرة الفنومنولوجية» *"Idee der Phanomenologie"* عام ١٩٠٧) . وفى هذه الفترة نشر مقالة اللوغوس المشهورة «الفلسفة بوصفها علمًا دقيقًا» *"Philosophie als strenge Wissenschaft"* (عام ١٩١١) ، والجزء الأول من « أفكار موجهة نحو فنومنولوجية خالصة وفلسفة فنومنولوجية *"I deen zu einer remen Phanomenologie und phanomenologischen Philosophie"* (عام ١٩١٣) .

ثم شغل كرسى الفلسفة بجامعة فريبورج - إم - بريسجاو ، اعتبارًا من ١٩١٦ . ونشر له تلميذه «مارتن هيدجر» مؤلفه «محاضرات فى

فنومنولوجية الشعور الداخلى بالزمان» *"Vorlesungen zur Phanomenolo- gie desinneren Zeitbewusstseins"* (عـام ١٩٢٨) . ثم نشر هوسـرل على التوالى : «المطلق الصورى والمتعالى» *"Farmale und transzendentale Logik"* (١٩٢٩) ، و «التأملات الديكارتية» *"Mélitations Cartésiennes"* (بالفـرنسيـة عـام ١٩٣١) ، و «أزمة العـلوم الأوروبية والفنـومنولوجيـة المتعالية» *"Die Krisis der europaischen Wissenschaften und die transzen- dentale Phanomenologie"* – (١٩٣٦) ، و «التجربة والحكم» *"Erfahrung und Urteil"* (نشـرها تلميـذه «لندجريبـه» *"Landgrebe"* عـام ١٩٣٩).
واضطر «هوسرل» ، تحت ضـغط النظام النازى ، إلى اعتزال كرسـيه فى فريبـورج ، حيث خلفه تلمـيذه «هيدجـر» الذى حرم عليه دخـول الحرم الجامـعى . ونقل تلميذه فى فريبـورج ، الأب «فان بريدا» Van Breda ، كتبه ومؤلفـاته غير المنشورة، سراً إلى لوفان خشيـة عبث الهتلريين بها . وتضم «قاعة محفوظات إدمـوند هوسرل» فى لوفان ما يقرب من ٤٥ ألف صفحة من الأعمال غير المنشورة ، ومعظمها مدون بالاختزال .

قارن بصدد مـواقفه الفلسفـية : اختزال فنومنولوجى ، فـعل الترقب الشعورى ، فنومنولوجية ، قصدية ، ماهية ، متعال ، مذهب نفسى .

هيدجر Martin Heidegger

مارتن هيدجر (١٨٨٩ -) من كبار الـفلاسفة الألمان المعاصرين . وهو تلميذ «هوسرل» وخليفته فى كـرسى الفلسفة بجامعة فريبورج - إم - بريسجاو . من أعماله الفلسفيـة كتابه الرئيسى المسمى : «الكون والزمان» "Sein und Zeit" (١٩٢٧) الذى أثر فى الفكر الأوروبى المعـاصر أعـمق تأثير ، و «كنت» ومشكلة الميتافيزيقا» "Kant und das problem der Metaphysik" (١٩٢٩) ، و «مـاهيـة الأصل» "Vom Wesen des Grundes" (١٩٢٩) و «ماهى الميتـافيزيقا ؟» "Was ist Metaphysik" (١٩٣١) ، و «هولدرلين وماهيـة الشعر» "Holderlin und das Wesen der Dichtung" (١٩٣٦) .

يؤمن «هيدجر» بإمكان الميتافيزيقا ويحاول إقامتها على أسس جديدة. وإن كانت الميتافيزيقـا هى تساؤل عن الوجود بوجه عام ، إلا أنه يرى - على عكس من سبقـه من فلاسفة مـا بعد الطبيعة - أن المميـز الأساسى للسؤال عن الوجود هو أن السائل ذاته جزء من السؤال ولا يمكن التغاضى عنه فى مبحثنا عن الوجود . من ثمة فلابد ، لإقـامة الميتافيزيقا ، من أن نبدأ بتحليل هذا الموجود الذى يضع الوجود موضع السؤال تحليلا يستهدف بيان النحو الذى يتكشف عليه الوجود . لذلك يفرد «هيدجر» الجزء الأول من كتـابه «الكون والزمـان» (وهو الجزء الوحـيد الذى ظهـر حتى الآن) لوصف الخصائص الماهوية للواقع الإنسانى (Dasein) ، مستعينًا فى ذلك

بالمنهج الفنومنولوجى ، بعد تعديله بما يلائم مقتضيات الميتافيزيقا . ويدلل «هيدجر» على أن أول خاصية ماهوية للواقع الإنسانى هو كونه بالضرورة «وجود فى العالم» (In-der-Welt-Sein) وأن وجود العالم متضمن فى الواقع الإنسانى باعتباره الإمكانية الأساسية لهذا الواقع . هذه الإمكانية هى ما يعبر عنه «هيدجر» بالهم (Besorgen) : فالوجود الإنسانى موجود بقدر ما هو مهتم بالعالم ، والعالم هو المقابل الموضوعى لإمكانيات الوجود الإنسانى فى مجموعها . ومن جهة أخرى فإن الوجود الإنسانى فى العالم هو وجود الإنسان كذات معينة تحيل إلى وجود الآخرين فى وجود مشترك (Mitsein) يؤلف العالم المحيط (Umwelt) . وهنا يضع «هيدجر» مشكلة الوجود الأصيل والوجود غير الأصيل (des Man) ، ويصف الوجود غير الأصيل بأنه استغراق الفرد فى الآخرين ووجوده على نحو غير شخصى ، يحجب عن الفرد موقفه الأساسى فى العالم باعتباره موقفًا غير معقول وغير ضرورى (Befindlichkeit) ، يتعين فيه على الإنسان أن يأخذ وجوده على عاتقه وأن يكون مسئولاً عنه مسئولية مطلقة . والقلق هو إحدى الحالات التى تكشف لنا موقفنا الأساسى فى العالم ، وتضع العالم أمامنا ككل غير معين ، وتتيح لنا اختيار الوجود الأصيل أو غير الأصيل اختياراً حراً . ثم أن القلق يجعلنا ندرك أن وجودنا فى العالم وجود متناه وأننا لا ننفك نحقق فيه إمكانياتنا، وأن الموت هو الإمكانية النهائية للواقع الإنسانى (Das Dasein

والوجود المتناهى وجود زمنى ينقسم stirbt faktisch, solange as existiert) إلى ماض وحاضر ومستقبل ويمكن فهمه بالرجوع إلى فكرة «الهم» .

(راجع كتاب : A. De Waelhens: *La Philosophie de Martin Heidegger*, Edit. de l'Institut Sup. de Philo Louvain.

واقعة Fait

الواقعة فى الفنومنولوجية هى «وجود فردى ممكن» . ويحيل إمكان الواقعة إلى الماهية الضرورية ، من حيث أن التفكير فى الإمكان هو تفكير فى أنه يدخل فى ماهية هذه الواقعة إمكان أن تكون على غير ما هى عليه.

واقعية الوجود Facticité (Befindlichkeit)

واقعية الوجود الإنسانى عند «هيدجر» و «سارتر» عدم ضرورته بمعنى لا معقوليته وخُلفه . «إن عدم الضرورة هو الشىء الأساسى . أعنى أن الوجود هو بالذات عدم الضرورة . والوجود هو الحضور لا أكثر ؛ والموجودات تظهر ونلتقى بها ولكننا لا نستطيع استنباطها من غير البتة . فعدم الضرورة ليس تمويهًا ولا مظهرًا يمكن تبديده ، بل هو المطلق وهو من ثمة شىء لا مبرر له . وكل شىء لا مبرر له على الإطلاق ، هذه

الحديقـة وهذه البلدة وأنا نفـسى . وحين يستـبين المرء كل هذا ، تنقلب أمعاؤه وتأخذ الأشياء فى الدوار . . . ذلك هو الغثيان » .

J. P. Sartre, *La nausée*, p. 166. Gallimard, Paris, 1938.

وضعية Positivisme

اتجاه رائده «أوجست كونت» Auguste Comte ، تابعه فيـه كثيرون يذهب إلى أن مـعرفة الوقـائع هى وحدها الخـصبة ، وأن اليـقين تحقـقه العلوم التجريبية ، والخطأ لا يمـكن تجنبه إلا بشرط الحرص على الاتصال دومًا بالتجـربة والعزوف عن كل مـا هو أولى ، وأن ميدان «الأشـياء فى ذاتهـا» لا يمكن الوصـول إليـه ، وأن الفكر لا يبلغ إلا إلى العـلاقـات والقوانين الوضعية .

رقم الإيداع بدار الكتب
١٠٨٨٧/ ٢٠٠١
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-01-7273-1



بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لي طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتألق ويؤثر. وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية واستحقت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر في كل دول العالم النامي وأسعدني انتشار التجربة ومحاولة تعميمها في دول أخرى، كما أسعدني كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها ولهفتها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل، ورغم اهتماماتي الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أنني أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هي الابن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى..

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية. تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالي مكتبة الأسرة إصداراتها للعام الثامن على التوالي، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكري والعلمي والأدبي وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلي وعشيرتي ومواطني أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

سعر النسخة
١٥٠ قرش

مكتبة الأسرة 2001
مهرجان القراءة للجميع